لائحة القومي العربي

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــــدد 98

01 نيسان 2025

كيف نواجه التفكك الإقليمي؟

نحو مشروع للنّهوض القومي

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

محتويات العدد 98 من مجلة طلقة تنوير:

- مكاننا في جدلية تعدد الأقطاب العالمية والقوى الإقليمية / واصل البدور 2
- حين تصبح الفوضى فرصة: كيف نواجه التفكك الإقليمي؟ / ميشيل شحادة.....5
- كلمة في سطر المراجعة الشاملة / بشار شخاترة 9
- المشروع القومي الطوراني: قراءة أولية لمنظمة الدول التركية / إبراهيم حرشاوي.....12
- ترامب وفوضى الإمبراطورية: زلازل السياسة الأمريكية ومهماتنا / محمد علي الهلالي.....17
- العرب والعروبة، لماذا ننكر ذاتنا القومية لصالح كولونيالي؟ / فارس سعادة 21
- العروبة هي الحل / كريمة الروبي 26
- سومر وأكاد وكلدان: تسميات جغرافية أم قومية؟ / إبراهيم علوش.....28
- كلمات ظُفارية مقارنة بأخرى بربرية / سعيد بن عبد الله الدارودي.....35
- من التراث القومي: نحو منظورات وحدوية جديدة / ياسين الحافظ (1978).....39
- الصفحة الثقافية 1 - فيلم "لا أرض أخرى": الاختراق المختلف / طالب جميل 43
- الصفحة الثقافية 2 - الإنسان، بين غوركي وكونديرا / مريم نصرالله 46
- قصيدة العدد: نبهتهم مثل عوالي الرماح / الشريف الرضي.....50
- رسوم العدد: يوم الأرض في فلسطين 52

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

مكاننا في جدلية تعدد الأقطاب العالمية والقوى الإقليمية

واصل البدور

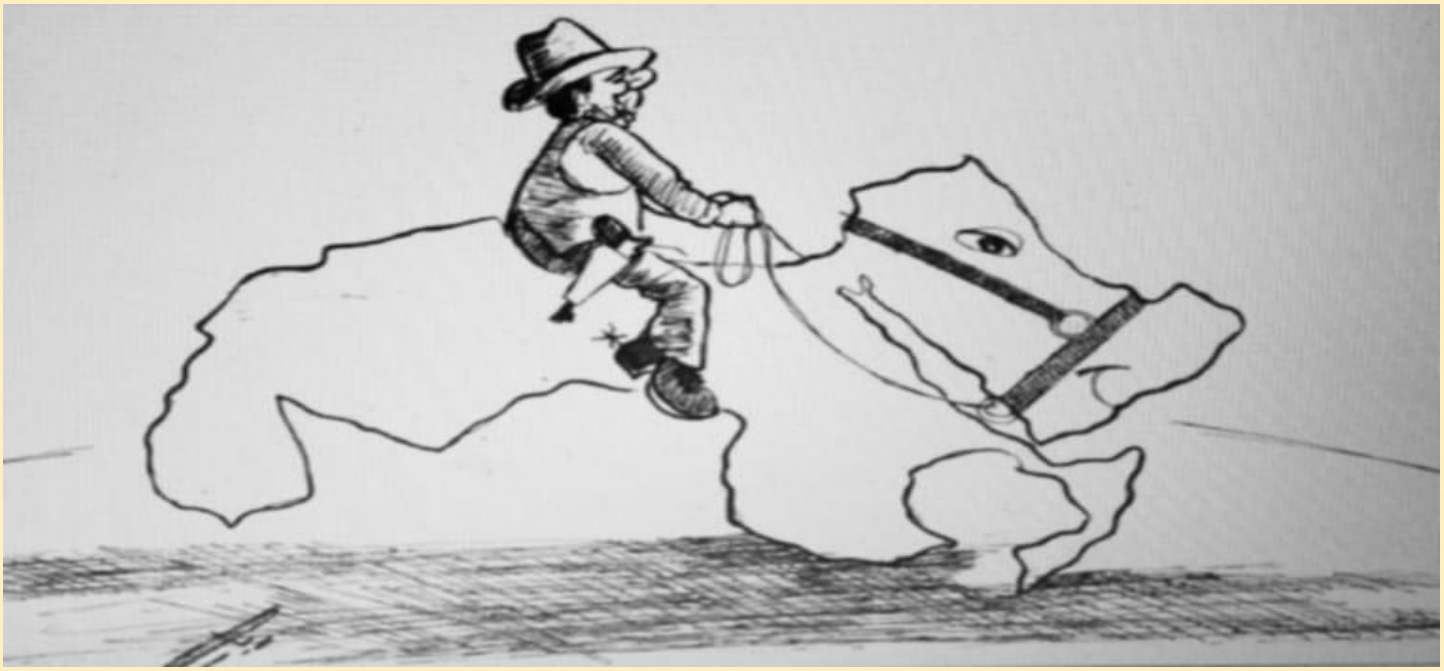

سؤال برسم الإجابة: ما هو وقع ظهور أقطاب عالمية وقوى إقليمية جديدة على ما يحدث في المنطقة العربية، وما هو أثر تنازع تلك الأقطاب والقوى عليها؟

تفرض فلسفة الأمن القومي والجغرافيا السياسية على الدول التي تدور في فلك قطب ما، ومنها العربية مثلاً، أن تحافظ على نفسها ضمن مفهوم التحالف أو الصداقة أو المصالح، وألا تنزلق إلى هاوية التبعية. ويمكن الوصول إلى ذلك بعدة استراتيجيات، منفردة أو مجتمعة، مثل موازين القوى، وتناغم العلاقات العربية البينية مجتمعة، أو ضمن توافقات في هذه المرحلة على الأقل، مما يعطي زخماً للمنطقة وقوة تنحسر بها التبعية إلى أضيق حدودها.

في المفهوم العام، يتشكل القطب السياسي من قوة مركزية قومية القدرة باتفاق حدود الدولة مع شعبها ولغتها، لتصبح كياناً ذا دبلوماسية واقتصاد وجيش ومجتمع واستقرار يجعل منه محوراً قائداً ومحدداً على مستوى العالم أو الإقليم. ومنذ نشوء الدول، تمثلت قطبية العالم في واحدة من ثلاث صيغ: فهي إما أحادية القطب (الهيمنة المطلقة لطرف واحد)، أو ثنائية، أو متعددة الأقطاب.

أما بالنسبة للقوى الإقليمية، والتي ليس بالضرورة أن تكون أقطاباً دولية، فإنها دول استطاعت أن تخرق معطيات وموازين القوى القائمة، وأن تبني ضمن تلك المعطيات دولةً قويةً مستقرةً وذات اقتصاد معقول. وعلى الأغلب، يتطلب نشوء مثل تلك الدولة مفهوماً عقدياً بالنشأة والرؤية السياسية والاستراتيجيات المنبثقة عنها.

تستطيع مثل تلك الدول، استناداً إلى تلك العناصر، أن تخرج من عباءة التبعية لأقطاب الدول العظمى، وأن تكون مؤثرة في محيطها الإقليمي بشكلٍ قويٍ يشمل السياسات والاقتصاد وقيام التحالفات المتوازنة. ويمكن إجمال مركبات مثل تلك الدولة الإقليمية بوجود القدرة المادية ومكوناتها وقوة الإرادة، والتي تتسم بمصدرها العقدي الأيديولوجي.

ففي ثنائية الإرادة والقدرة، هناك عدد من الدول العربية التي تتوافر لديها القدرة على أن تكون لاعباً في المنطقة، منفردة أو مجتمعة، كمصر والجزائر، وكذلك السعودية إلى حد ما. وليس من الضرورة بمكان أن تكون هذه الدول قطباً عالمياً، فهناك القوى العظمى، والدول القوية، والقوى الإقليمية، ووجود أي منها يشكل بداية الطريق والبوصلة الصحيحة للوطن العربي.

لكنْ، لاختفاء الإرادة بشكل قطعي بأن تصبح هذه الدول قائدةً في المنطقة، فإن وجود قطب عالمي جديد يصبح أشبه ما يكون ضرورةً للدول الضعيفة أو المستضعفة كي تحافظ على وجودها، لأنه كلما تعددت أقطاب العالم السياسية المسيطرة فإن هذه الأقطاب تحد من تمدد نفوذ بعضها بعضاً على الدول الصغيرة أو الضعيفة. وعلى الرغم من أن القوى العظمى تتقاسم العالم فيما بينها في بعض الأحيان، إلا أن المعادلة تبقى صحيحة، وخصوصاً أن كون الدولة القطب-الدولي قوة عظمى لا يعني بالضرورة قدرتها على التغول أو السيطرة على الدول القوية أو القوى الإقليمية في كل مكان.

على أنه يُفهم أنه لتكون دولة ما قطباً، فإن هناك معايير وقواعد وضوابط، فمثلاً القوة لا تعني القطبية دائماً، فلا يمكن لدولة قوية انضوت تحت عباءة قطب آخر أن تكون قطباً. تنطبق تلك القاعدة إلى حد ما، أو تنطبق جزئياً على روسيا، حيث أنها تنازلت وتراجعت عن جزء كبير من قطبيتها، في أوقات مفصلية متعددة، لصالح الهيمنة الغربية استلاباً أمامها، وانعداماً للثقة بالذات أمام الغرب الذي يدعي هرمية الحضارة، أو أن ذلك قد يكون مرده عبثية التصرف وسطحية الفهم السياسي لواقع الحال والجغرافيا السياسية، إذا أردنا أن نحسن النية والظن.

لعل من أكبر الأمثلة على ذلك تخلي روسيا عن حليفها التاريخي (الجمهورية العربية السورية)، والتي وهبتها حلماً غير موعود وقوة ردع عظيمة لم تكن في حسبانها بمقاييس الجغرافيا السياسية، عندما منحت سوريةُ روسيا، ربما لأول مرة في تاريخها، موطئ قدمٍ على المياه الدافئة على أهم شواطئ العالم القديم، والذي طالما كان حلماً تاريخياً لدول ذات مركزية عالمية أكثر من روسيا.

ربما يكون لذلك الإحساس الدوني بعداً تاريخياً نفسياً في تاريخ العلاقات بين روسيا والغرب، حيث أنه، وعلى الرغم من إرث الإمبراطوريات الغربية التي فرضت وجودها تاريخياً، مثل إسبانيا وبريطانيا وفرنسا، إلا أنه لم يتم ترسيم روسيا، أو الاعتراف بها كدولة لاعبة ومؤثرة في أوروبا والعالم، إلا قبل أقل من مئتي عام (بعد تغلبها على فرنسا نابليون، ثم دخولها برلين في مواجهة هتلر)، على الرغم من قوتها التاريخية وإرثها الحضاري العميق، والذي هيأ لها أن تقوم كدولة ذات سيادة على مر أكثر من ألف عام.

كذلك من الممكن أن يُعزى ذلك للاستعلاء الأوروبي على بقية العالم، وقبول العالم، بما فيه روسيا، بذلك، غير معتنقٍ لما يدعيه الغرب بأن روسيا تاريخياً لم تكن قطباً مركزياً لأنها أعطت الأولوية للقوة على الثروة والرفاه للمجتمع، لأن ذلك مبدأ

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

موغل في النفعية على حساب القيم، وكذلك فإنه لم ينطبق على معظم الإمبراطوريات القطبية مثل: الإمبراطورية العربية الإسلامية، الإمبراطورية المنغولية، وحتى الرومانية القديمة، وإلى ما هنالك من أمثلة كثيرة.

مع الإقرار بالحقيقة الكونية أن لا احتكار في التميّز لعرقٍ أو لون، وحتى أنه لِمن يدخل في تفاصيل القارة السوداء، والتي يعدها الغرب العالم الأخير، سيجد أن فيها تفاصيل ووقائع عظيمةً وتاريخاً لا يمكن أن يهملَ، لكنّ التشابه بيننا وبينهم، وقد يكون كذلك التشابه مع أي طرف تمت الهيمنة عليه في هذا العالم، هو نكوصنا على أنفسنا والهزيمة الإرادية والانسحاب والتراجع الطوعي، والذي قد يرجع إلى أسبابٍ عديدة وشائكة منها البراغماتية الفردية المفرطة وقصيرة المدى، والتي ينشأ عنها عدم الاعتقاد والقناعة بما هو جمعي وعام ينهض بالأمة سوية، ومنها الشعور الزائف والحالة النفسية الجماعية التي نشعر بها بتفوق الآخر علينا حضارياً ومن ثم قوةً. لكن تبقى الإرادة والاستعداد للتضحية وخاصة للتنازل عن المكاسب الفردية الضيقة مقابل المصلحة الجمعية العامة هي سيدة الموقف والشواهد من العالم كثيرة، أي أن مختصر القول إننا أمة تزخر بالقوة والثروة وتنقصنا إرادة النهوض.

التوجه لقطب عالمي جديد لا يعني الولاء له، حيث لا ولاء في العلاقات الدولية والسياسية. لكن، وبالذات لنا كعرب، فإن نشوء أي قطب جديد في العالم، وبغض النظر عن نواياه تجاهنا، ولكنه إذا ما كان متناقضاً مع قطب العالم القديم (الغرب والشمال)، فإن ذلك يخفف وطأة التغول الغربي. وعلى الجانب الآخر، فإن التعاطي مع الأقطاب يختلف من التعامل كتابع، كما هو حال معظم دول العالم اليوم، والتعامل برؤية واستراتيجيات وموازين القوى والموقع والاتصال والجغرافيا السياسية. فكلما تعددت الأقطاب المسيطرة في العالم كلما أتاح ذلك ظهور اللاعب الإقليمي بشكل أكبر، وكلما جعل من الممكن أكثر أن تتعامل حتى الدول الصغيرة، بما لديها من معطيات القوة والجغرافيا السياسية واتزان الأقطاب، كند لند مع الدول الكبرى، على الأقل في مجال مصالحها وسيادتها والدفاع عن نفس وعدم انجرارها لما ليس لها فيه.

الوطن العربي، منذ عمق التاريخ، هو قطب طبيعي، أي أنه موجود دائماً وبطبيعة الحال. لكنّ الوطن العربي كقطب يختلف جذرياً عن بقية الأقطاب وذلك بحقيقتين: الأولى أن كل قطب من أقطاب العالم كان دائماً دولة واحدة ولها أتباع إما ضعفاء أو لهم بعض القوة، كما في حالة أوروبا وأمريكا. تفرد الوطن العربي عن هذه الخاصية أنه كان دوماً قطباً مجتمعاً، كدولة واحدة، أو متفرقاً كما هو الآن، حيث ينظر له الخارج والعالم ككيان واحد من نفس الجنس والكينونة والخطر. أما النمط الثاني للوطن العربي، والذي يفسر الخاصية الأولى، أنه مثّل دائماً قطباً أو ميداناً للصراع، سواء كان قوياً كقطبٍ مبادرٍ وكدولة واحدة، أو ضعيفاً كعدد من الدول، وفي تلك الحالة الثانية تتجلى قطبيته العكسية أو الكامنة، في حالة ضعفه وتفرقه وتعدد الدول فيه، حيث أنه يصبح وقتها محط أنظار الأقطاب المتصارعة، كطرف متنازع عليه، أو كطرفٍ في نزاع ، تدأب القوى الأخرى على إبقائه ضعيفاً، إما خوفاً أو مصلحة. وهذه نقطة مفصلية يمكن لأقطار الوطن العربي استخدامها وبقوة، ولكن نعود هنا لنتحدث عن ضرورة وجود الإرادة والإدارة الغائبتين.

يستوجب للدولة القطب ألا تكون متقوقعة على ذاتها كالصين، لأنها بذلك لا يمكن أن تكون دولة قطب مهما عظمت، بل يجب أن تكون ذات أثر ووقع عالمي، وألا تكون مستلبة. وخذ كذلك مثال تركيا، والتي يمكن اعتبارها كدولة إقليمية تفرض وجوداً وواقعاً معيناً، ولكنها تمثل وجوداً إقليمياً موغل السلبية كأداة منفذة، حيث أنها ألعوبة بيد الغرب، وكنتيجة حتمية مترتبة على ذلك فهي تعيث الفساد في كل من العراق وسورية، ولا تجرؤ مثلاً حتى على مجرد المناورة، وفي أي مجال، مع الكيان الصهيوني حتى وإن هدد مصالحها، وهذا ليس حديثاً على تركيا، وإنما هو إرث تاريخي. وهنا تفقد الدولة صفتها كقوة إقليمية.

في المقابل، يمكن طرح الاحتمال الأقل حدوثاً والأعظم أثراً إذا ما حدث، وهو أن تتحول إيران من محور المقاومة إلى أحضان الغرب والصهيونية، كما كانت في فترة حكم الشاه مثلاً، وهنا تصبح إيران تركيا ثانية في المنطقة بعدما كانت حليفاً داعماً وتهديداً جدياً للكيان الصهيوني، وتصبح ابتلاء جديداً للمنطقة برمتها.

ويمكن أن نأخذ في هذا السياق، سياق الدولة المحورية إقليمياً، وجود الكيان الصهيوني كمثال على عدم محورية الدولة على الرغم من قوتها، سواء الذاتية أو الناتجة عن وحدتها العضوية مع الغرب. حيث تتجلى ضمن هذا المضمار نظرية ومفهوم الدولة الأصيلة والكيان الطارئ ووقع ذلك على إقليمية الدولة، حيث لا يمكن لطارئ أن يكون محوراً. كذلك، يعود هنا البعد العقائدي الذي يفرض نفسه كواقع لا بديل عنه كعامل قوي في فرض ثنائية التبعية والقطبية.

كما يمكن للبعد العقائدي أن يظهر جلياً في الاقتراب الطبيعي، غير المفروض أو المصطنع: اقتراب منظومة الشرق من بعضها بعضاً بحكم غلبة المنظومة القيمية في مجمل الدول الشرقية على النفعية، على عكس الغرب المنحل قيمياً، والذي تقترب دوله فيما بينها على الرغم من اختلافها الكبير في العرق واللغة والثقافة.

في الخلاصة، إن ظهور قطب جديد مثل روسيا، أو قوة إقليمية جديدة كإيران، حتى وإن لم تتحد أو تتقاطع كقوى دولية أو إقليمية مع رؤانا وقضيتنا كما نراها، فإن وجودها في المفهوم العام، وفي ظل الضعف والهوان الذي حل بمنطقتنا، يبقى مهما بالإيجاب عند ثبوت فرضية أن هذه القوى هي قوى حقيقية مستقلة وليست أذرعاً خفية لغيرها.

حين تصبح الفوضى فرصة: كيف تواجه المقاومة التفكك الإقليمي؟

ميشيل شحادة

شهد العالم تحولاً عاصفاً تتسارع وتيرته على نحو يفوق التوقعات، حيث يترنح النظام الدولي الذي تشكّل في أعقاب الحربين العالميتين أمام أعيننا، ويمرّ بمرحلة مخاضٍ حاسمة أسرع وأعمق مما كنا نتصور قبل سنوات قليلة. هذا التحوّل ليس مجرد

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

تغيير مرحلي، بل لحظة فاصلة تتطلب نقاشاً جاداً ومعمقاً، ويجب أن تكون في صلب وعي الأجيال الشابة الصاعدة، فهي التي سترث هذا العالم المتغير وستسهم في تشكيل ملامحه وفق رؤيتها ومصالحها.

إن ما نشهده اليوم ليس مجرد إعادة تموضع للقوى الدولية، بل زلزالٌ جيوسياسي يعيد تشكيل المشهد العالمي، ويطرح فرصاً تاريخية نادرة يمكن لمن يملك الرؤية والقدرة أن يستثمرها لصالحه. والمنطقة العربية، إن أدركت أبعاد هذه اللحظة واستوعبت دروس الماضي، قد تجد في هذا التحوّل نافذةً للنهضة والتقدم، فالأمم العظيمة تصنع قدرها عندما تلتقي الفرصة بالإرادة، وتكون مستعدة بمشروع متكامل يحدد ملامح المستقبل الذي تسعى إليه.

إن استيعاب هذه التحولات يجب أن يتجاوز مجرد توصيف الواقع إلى خلق تصور واضح للمستقبل المنشود. فبدلاً من الاكتفاء بتشخيص الأزمات القائمة، ينبغي العمل على رسم ملامح الغايات الكبرى التي نسعى لتحقيقها، والتي ستشكل الناظم الأساسي للاستراتيجيات المتخصصة في الاقتصاد والسياسة والثقافة والتوجهات الحضارية. وكما فعل لينين في برنامجه "ما العمل"، حين وضع تصوراً واضحاً لمستقبل روسيا في تلك الفترة واستعد له بآليات وخطط عملية، فإن أي مشروع تحرري عربي يجب أن يكون مبنياً على تصور واضح للهدف النهائي، مدعوماً باستراتيجيات متكاملة تتناغم فيما بينها.

الهجمة الصهيو-أمريكية على الوطن العربي ليست مجرد استهداف مباشر للمقاومة، بل هي جزء من استراتيجية أوسع تهدف إلى إعادة تشكيل النظام الجيوسياسي للمنطقة بما يخدم المصالح الإمبريالية والصهيونية. هذه التحولات لا تقتصر على الحروب المباشرة أو التدخلات العسكرية فقط، بل تمتد إلى تفكيك الدول الوطنية وإعادة رسم الحدود السياسية وإضعاف القوى المركزية، بهدف فرض نظام جديد يكرس التبعية للغرب ويضمن تفوق الكيان الصهيوني، مما يعزز مركزية القوى الاستعمارية على حساب استقلالية المنطقة. يسعى هذا المشروع إلى خلق بيئة سياسية هشة تعاني من الانقسامات والصراعات الداخلية، مما يمنع نشوء أي قوة عربية أو إسلامية قادرة على تهديد المنظومة الغربية أو التأثير في معادلات القوة الدولية.

لكن هذه الهجمة، التي يعتقد العدو أنها ستمنحه السيطرة المطلقة، قد تكون في الواقع فرصة تاريخية للمقاومة لإعادة تشكيل المشهد الإقليمي وفق معادلات جديدة. فبينما يتم تفكيك الأنظمة العميلة والمهترئة، يمكن للمقاومة أن تمنع العدو من ملء الفراغ الناجم عن هذا الانهيار، بل أن تستثمره لصالحها عبر فرض مشروع سياسي واستراتيجي بديل، قائم على الاستقلال الحقيقي والسيادة الوطنية. هذه اللحظة يمكن أن تشكل نقطة تحول تعيد للمنطقة دورها الفاعل في تقرير مصيرها، بعيداً عن الإملاءات الخارجية، وأن تضعها على مسار يعزز قدرتها على استعادة سيادتها وبناء منظومة مقاومة قادرة على كسر الهيمنة الغربية والصهيونية.

إن الولايات المتحدة والكيان الصهيوني يعتمدان على سياسة "الفوضى الخلاقة" كأداة لإعادة الهيمنة على المنطقة. فبدلاً من التدخل العسكري المباشر في جميع الدول، يتم العمل على زعزعة استقرار الدول القوية والمقاومة، مثل سورية والعراق ولبنان واليمن، عبر دعم الانقسامات الطائفية والعرقية، وإذكاء الصراعات الداخلية، وإضعاف الحكومات المركزية، بحيث تصبح هذه الدول غير قادرة على تشكيل تهديد للهيمنة الغربية. الهدف هنا ليس مجرد تدمير الأنظمة القائمة، بل منع أي مشروع مقاوم من أن يستغل الفراغ الناتج عن سقوط هذه الأنظمة في بناء منظومة سياسية جديدة تعزز الاستقلالية وتناهض المشروع الصهيوني.

الاستراتيجية الأمريكية والصهيونية لا تعتمد فقط على التدخل المباشر، بل على خلق وكلاء محليين وتنظيمات وظيفية لضرب الدول المقاومة من الداخل. يتم التلاعب بالمكونات العرقية والطائفية لخلق حروب داخلية تستهلك الجهود والموارد، مما يؤدي إلى إنهاك المجتمعات ومنع ظهور جبهة عربية موحدة ضد الصهيونية والإمبريالية. في الوقت ذاته، يجري دعم الحكومات العميلة كأدوات وظيفية للحفاظ على النفوذ الأمريكي ومنع بروز تحالفات بديلة تهدد المصالح الغربية، كما هو الحال في موجة التطبيع التي تسعى واشنطن إلى ترسيخها بين بعض الأنظمة العربية والكيان الصهيوني.

ما يحدث في سورية وفلسطين من زرع الأنظمة العميلة، وفي لبنان من محاولات السيطرة على النظام السياسي وزرع قوى سياسية واجتماعية تعيق المقاومة الإسلامية عبر استنزافها بهجمات سياسية واجتماعية تمنعها من التركيز الكامل على مواجهة الكيان الصهيوني، يشكل مثالاً واضحاً لهذه الاستراتيجية. كما أن الفوضى التي تعم ليبيا والسودان، والاقتتال بين القوى المسلحة بهدف إنهاك البلد واستنزاف موارده ومنعه من تشكيل أي قوة سياسية أو اقتصادية مستقلة، هو أيضا تجسيد حي لهذه السياسة التي لم تعد موضع شك.

إن الاعتراف بأن النظام الإقليمي القائم فاسد ومستنزف وخاضع للهيمنة الأمريكية يفتح الباب أمام التفكير في كيفية استغلال لحظات الانهيار والتحولات الكبرى لصالح المقاومة. فمن الممكن أن يكون العمل على أساس المثل الشعبي القائل "إن ما خربت ما عمرت"، إذ إن محاولة إصلاح النظام القائم، الذي تأسس وفق اتفاقية سايكس-بيكو، هو ضرب من المستحيلات، كما أثبتت التجارب التاريخية. بدلاً من مقاومة التغيير لمجرد التمسك بالوضع القائم، يمكن التعامل مع هذا التغيير كفرصة لإعادة ترتيب المشهد السياسي وفق أسس تخدم التحرر الوطني والاستقلال السياسي، وتضع المنطقة على طريق تحقيق غاياتها الكبرى وأهدافها الاستراتيجية كأمة عربية موحدة ذات سيادة حقيقية بعيداً عن الهيمنة الغربية والصهيونية.

في ظل التفكك والفوضى التي تصيب بعض الدول نتيجة الضغوط الأمريكية و"الإسرائيلية"، يمكن للمقاومة أن تستغل هذه الظروف لإعادة ترتيب المشهد السياسي لمصلحتها. يجب أن تكون الفوضى أفضل حليف للمقاومة في مواجهة النظام الرسمي، بحيث لا تسمح للقوى المتصارعة التي تخلقها القوى الخارجية بالانفراد بالساحة وتمثيل الإرادات الخارجية. بدلاً من ذلك، ينبغي أن تلعب المقاومة دوراً رئيسياً في إضعاف النفوذ الأمريكي وتقليص قدرة القوى العميلة على السيطرة على الأوضاع، من خلال تمثيل الجماهير والدفاع عن مصالحها الحقيقية، مما يجعلها الخيار الوطني الأبرز في مواجهة القوى الاستعمارية وعملائها.

ينبغي استهداف التواجد الأمريكي داخل المنطقة وتقويضه عبر الضغط العسكري والشعبي، مع التركيز على ضرب الأنظمة العميلة التي تسير في ركب التطبيع وتخدم المشروع الصهيوني. إن تحجيم النفوذ الأمريكي لا يقتصر فقط على المواجهة المباشرة، بل يتطلب استراتيجية شاملة تشمل مقاومة الوجود العسكري، وكسر الهيمنة الاقتصادية، وفضح الدور السياسي الذي تلعبه واشنطن في دعم الأنظمة الاستبدادية التابعة لها وضمان تفوق الكيان الصهيوني.

كما أن تصعيد المواجهة مع الكيان الصهيوني في لحظات التغير الإقليمي الحاسمة أمر ضروري، إذ إنه يمنع تثبيت وقائع جديدة تخدم الاحتلال، ويعزز قدرة المقاومة على فرض معادلات جديدة في الصراع. إن الوضع في سورية يُعد مثالياً للبناء المقاوم، حيث إنها تعد من أكبر البيئات العروبية جماهيرياً، وتمتلك تاريخاً عريقاً في المقاومة، فضلاً عن تماسها المباشر مع مختلف القوى المعادية في المنطقة. وفي الوقت ذاته، ترتبط بتحالفات قوية مع قوى إقليمية صديقة، وتتمتع بحدود مباشرة مع فلسطين المحتلة، ما يمنحها موقعاً استراتيجياً استثنائياً.

هذا الموقع الفريد يمنح المقاومة القدرة على المناورة وإعادة تشكيل موازين القوى بما يخدم مشروع التحرر والاستقلال، ويفتح المجال لتكامل الجبهات في مواجهة الهيمنة الصهيو-أمريكية. وإذا كان لا بد للمشروع القومي المقاوم أن يبدأ، فإن

الوضع في سورية يشكل تربة مثالية للزرع والانطلاق، حيث تتوافر الظروف الموضوعية لإرساء قاعدة صلبة لمشروع تحرري قادر على مواجهة التحديات الإقليمية والدولية.

بعد إسقاط الأنظمة العميلة أو إنهاك الدول المقاومة، غالباً ما يسعى العدو إلى فرض وكلائه الجدد على السلطة من خلال التدخلات الدولية وصناعة حكومات عميلة، إضافة إلى تمويل ميليشيات بديلة تخدم المصالح الغربية. وهنا يجب أن تكون قوى المقاومة جاهزة بمشروع استراتيجي لمواجهة هذا السيناريو، وذلك عبر دعم الحركات الشعبية المقاومة، بحيث لا يكون التغيير في صالح النخب العميلة، بل في صالح القوى الوطنية التحررية. كما يتوجب على المقاومة اختراق المجال السياسي من خلال تحالفات استراتيجية تمنع العملاء من الاستفراد بالحكم، وتوسيع رقعة النفوذ العسكري والأمني لضمان عدم ترك الفراغ مفتوحاً أمام التدخل الغربي.

إن الهدف النهائي للمقاومة لا ينبغي أن يقتصر على التصدي للعدوان، بل يجب أن يتعدى ذلك إلى خلق نموذج بديل عن النظام الإقليمي القائم. وبدلاً من ترك الساحة للأنظمة العميلة، يجب العمل على بناء تحالف إقليمي جديد يكون بديلاً عن المؤسسات المرتبطة بالإمبريالية، وتعزيز التعاون العسكري والأمني بين كل قوى المقاومة، بحيث يصبح للمحور المقاوم ثقله الاستراتيجي. كما يجب إنشاء اقتصاد مقاوم مستقل عن الهيمنة الأمريكية، عبر تعزيز العلاقات مع القوى الصاعدة مثل الصين وروسيا، والاعتماد على الموارد الذاتية. إضافةً إلى ذلك، ينبغي نشر الوعي القومي والتحرري لمواجهة محاولات تقسيم الأقطار على أسس طائفية وعرقية.

الهجوم الصهيو-أمريكي ليس نهاية النضال، بل هو مرحلة انتقالية قد تكون نقطة تحول في الصراع من أجل التحرر. الفوضى التي يحاول العدو استغلالها لصالحه يمكن أن تصبح أداة في يد المقاومة لإعادة تشكيل المنطقة وفق رؤية مستقلة بعيداً عن الإملاءات الغربية. لكن هذا لن يحدث تلقائياً، بل يتطلب امتلاك زمام المبادرة ومنع العدو من استغلال الفراغات التي يخلقها، وفرض مشروع مقاوم جديد يقدم بديلاً حقيقياً للأنظمة العميلة. إن بناء توازن جديد للقوة لا يعتمد فقط على السلاح، بل على قدرة المقاومة على صياغة مشروع سياسي، اقتصادي، وأمني متكامل يكون نواة لتحرير المنطقة من الهيمنة الصهيو-أمريكية.

من الصعب أن تحتوي مقالة واحدة على جميع جوانب مشروع تحرري شامل، إذ يجب أن يكون هذا المشروع متكاملاً ومغلقاً من جميع الجوانب الفكرية والاقتصادية والسياسية والتحالفية والاجتماعية والثقافية والفنية والإعلامية والاستخباراتية والتكنولوجية، أي أن يكون مشروعاً حضارياً وتاريخياً متكاملاً، يوازي شمولية الحياة ذاتها. إن التغيرات العالمية والإقليمية، وإن كانت متسارعة، ستأخذ بعض الوقت قبل أن تستقر على شكل جديد، مما يستوجب العمل على هذا المشروع القومي الاستراتيجي، إذا لم يكن قد بدأ بالفعل. فالاستراتيجيات الكبرى تستغرق عقوداً طويلة تتماشى مع مسيرة التاريخ، التي قد تبدو بطيئة بالنسبة لحياة الأفراد، لكنها ملائمة لحياة الأمم، وخصوصاً العريقة منها مثل أمتنا.

يجب الاستفادة من نموذج اليمن، ونسج علاقات تحالفية معه، واستثمار تجاربه وخبراته ومقدراته وقدراته العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، إذ يمثل اليمن اليوم تجربة حية لكيفية الصمود والمواجهة في وجه الهيمنة والاستعمار. وهو نموذج يمكن استلهامه في بناء المشروع التحرري الأوسع للأمة العربية، حيث تمتلك المقاومة هناك دولة حقيقية مستقلة، وليست مجرد حركة مقاومة داخل دولة خاضعة للضغوط. هذه الخصوصية تمنح النموذج اليمني بعداً استراتيجياً فريداً، يجعله مصدر إلهام للمقاومات الأخرى، التي تسعى للتحرر من السيطرة الاستعمارية وبناء أنظمة سياسية ذات سيادة حقيقية.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

كلمة في سطر المراجعة الشاملة

بشار شخاترة

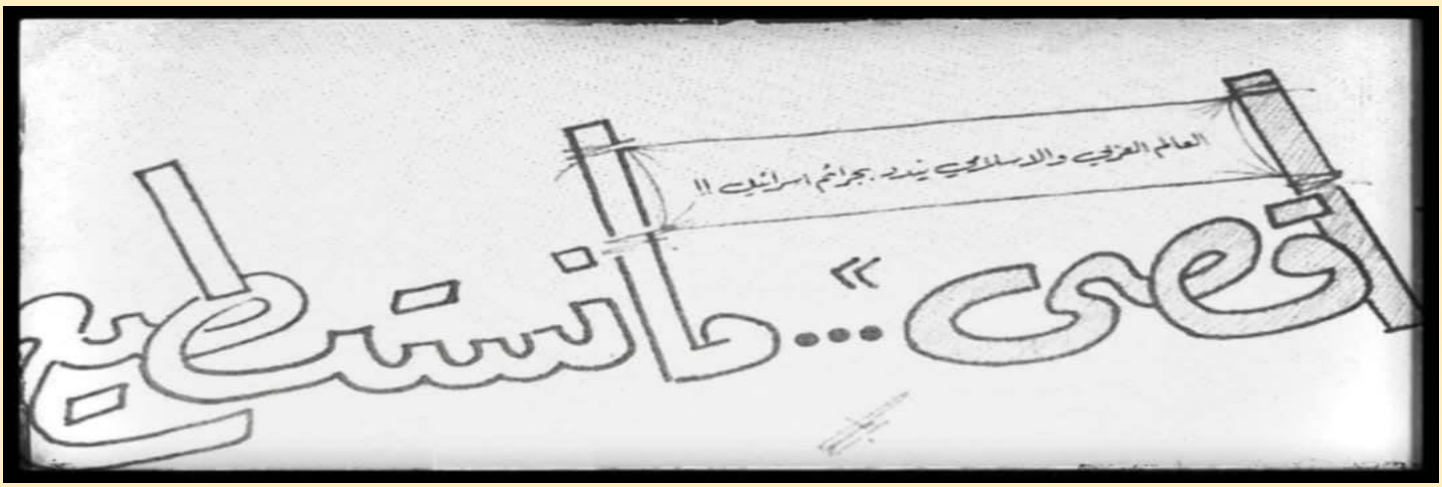

منذ أن بدأت حالة من الاستفاقة العربية قادتها طليعة من المفكرين العرب في المشرق العربي للثورة على الاحتلال التركي المتستر بعباءة الدين، ومداد الأفكار والطروحات لم يتوقف عن التنظير لمشروع عربي شامل تستعيد به الأمة العربية وحدتها وتتحلل من قيود الهيمنة الخارجية عليها، لنتخلص من محتلٍ لنقع في حبائل محتلٍ جديد، ففيما سبق لا سيما بعد أن نشأت الدول القطرية العربية، كان احتلال فلسطين هو المعطى الأسوأ في الواقع العربي، وكان اللوم موجهاً دائماً لتخاذل النظام الرسمي العربي لأنه كان إما متواطئاً، وإما عاجزاً عن التصدي للاحتلال الصهيوني لفلسطين، لكن كان هناك حدٌ أدنى من التماسك في هذا المجال، أما اليوم فظاهرة الاحتلال لم تعد تقتصر على فلسطين بل انضمت إلى هذا النادي أقطار جديدة.

وخلال القرن المنصرم نشأت حركات سياسية ذات امتداد عابر لحدود التجزئة العربية، من أبرزها حركة البعث وحركة القوميين العرب وحركة الإخوان المسلمين، واتسمت الأولى والثانية بطبيعتيهما القومية العلمانية، أما الثالثة فكانت دينية مذهبية وإن لم يكن التمذهب بادياً عليها خلال القرن العشرين لأن طبيعة الموقف المطلوب منها يقتضي أن تحيد التناقض الثانوي المذهبي لحساب التناقض الرئيسي القومي العلماني إلى آخر التوصيفات للحركات القومية، فالتجاذب والصراع الإمبريالي على الوطن العربي كان من بوابة القومية العربية، لهذا كان الشغل الشاغل لحركة الإخوان المسلمين هو تركيز جهدها المضاد على أساس أن القومية نقيض للإسلام بصرف النظر عن المذهب.

لقد ضم الإسلام السياسي السني تحت عباءته كثيراً من المرجعيات والحركات من قبيل الإخوان المسلمين والوهابية السياسية الدينية والسلفية بتفرعاتها وحزب التحرير إلى آخر هذه الجماعات، وفي خضم هذه الزحمة لقوى إسلامية برزت على جوانب المشهد حركة مقاتلة شيعية تنتمي للمذهب الاثني عشري وهذه الحركة اسمها "حزب الله"، واستطاعت هذه الحركة المحصورة في جنوب لبنان أن تفرض نفسها وتكسر خطوط الوهم المسماة حدوداً خارج لبنان إلى إطار أرحب هو الإطار العربي، وفي ذات الوقت أن تكسر قيد المذهبية، حيث شكل تحرير جنوب لبنان رافعة لحزب الله أدخلته إلى كل بيت عربي مضافاً إلى ذلك الكاريزما التي تمتع بها الشهيد السيد حسن نصرالله، وتعزز هذا الحضور بعد حرب تموز 2006، لكن لم

يطل الوقت الذي بدأت السماء تتلبد بالغيوم والدعاية الإعلامية السوداء المثقلة بالنفط التي فتحت الفضاء من أجل شيطنة الحزب وبطولاته وتطييف منجزاته بثوب الطائفية الشيعية التي تقف في مواجهة الوجود الطائفي السني، وهنا ظهر دور الحركات الإسلامية التي سبق أن تطرقنا لذكرها في هذا المقام.

الإشارة هنا لنقول إن الشارع العربي متفتح الذهن والعقل للتجاوب مع أي حركة عربية مهما كانت خلفيتها الفكرية، فالشارع يتعاطى بإيجابية مع أي حركة تختار درب التضحية أو تطرح فكراً يملأ عقول الناس، فالحزب مثلاً رغم جماهيريته لم يتمكن من تجاوز طوق الطائفة ليصبح مشروعاً عربياً أكثر شمولاً، وأما حركة الإخوان رغم تجذرها في الشارع إلا أنها لم ترتقِ إلى أن تكون طليعة حقيقية، لأنها محكومة بالحالة المذهبية أولاً وبانتهازيتها ومساوماتها التاريخية وبسقفها المهادن وضبابية منهجها الاقتصادي، مع أنها في الحقيقة ليبرالية الخط الاقتصادي، وهي من الناحية الواقعية لا تشكل حلاً منطقياً أو أنها لا تريد، فهي أثبتت أنها حركة مضادة لأي حركة تحررية عربية، وقد وقفت على الحياد في (الربيع العربي) تنتظر لمن ستؤول الأمور، مع أن "الربيع العربي" كان مشروعاً أمريكياً أوصل حركة الإخوان إلى الحكم في مصر ليتبين أن خطاب هذه الحركة ضد البعث وعبد الناصر باسم الإسلام كان غطاءً للدفاع عن مصالح الحركة ومموليها التاريخيين، وأن حركة الإخوان هي الوجه الديني للكمبرادور، وأنها تتبنى ذات المنهجية التي كانت عليها الأنظمة الرجعية، لهذا فإن الوهم الإخواني ما هو إلا سراب ما أن يمسك بالسلطة حتى تتبخر كل تلك الشعارات.

أما حالة البعث فإنها بدأت بالإخفاق من حيث كان يجب أن تنجح وتنطلق، فرغم أنها شرعت في برامج اقتصادية منحازة لعامة الشعب واتخذت مواقف سياسية منحازة لمصالح الأمة العربية ومناهضة قوى الهيمنة الغربية، لكنها لم تستطع أن تفصل بين البعث الحركة الوحدوية التحررية وبين البعث الدولة، ما انعكس بالتراجع على صعيد المد القومي، فالمفترض كان تمدد حركة البعث إلا أن ما حدث هو العكس فقد تراجعت وتيرة هذا المد قياساً على ما كانت عليه في خمسينيات وستينيات وسبعينيات القرن العشرين، وهذا أدى إلى هرم حركة البعث المبكر، وذلك لأسباب منها تسلل الانتهازيين إلى الحزب وانحسار حركة البعث ضمن الدولة القطرية سواء في العراق أو سورية، على أنه من أهم أسباب هذا الهرم الذي أدى إلى الانهيار هو غياب البرامج القومية التي كان يفترض بها استيعاب آلاف الشباب العرب في بناء طليعة قومية مهمتها استكمال المهمة والانطلاق بالمشروع الوحدوي وتصديره لباقي الأقطار العربية، إلا أن البعث أصابته عدوى النظام الرسمي العربي وأصبح يتعاطى معها ومع قواعد العلاقة بين الأقطار العربية وتحت سقف جامعة التبعية العربية، بالقطع ليس بالانغماس الكامل كما كانت باقي الدول العربية لكن حالة من الاستيعاب الناعم كانت تجرف سلطة البعث في سورية والعراق ضمن قواعد ومحددات النظام الرسمي العربي الذي يحكمه سقف الجامعة العربية.

فبالمقارنة مع انتشار أفكار الحزب وتأطيرها ضمن حركات في عدد من الأقطار العربية في مرحلة الصعود، في فترة عقود الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، إلا أن النتيجة كانت تراجعاً واضحاً مع أن الحزب أصبح في السلطة في قطرين عربيين مهمين. لم تلتفت قيادة الحزب إلى أن التنظيمات تشيخ كما الدول وكما البشر، وأن غياب العمل على الاستقطاب وغياب المهمات التنظيمية وغياب خطة العمل القومي خارج نطاق سلطة القطر التي يحكمها الحزب أدى بالنتيجة إلى التراجع، ولو كان بطيئاً، إلا أنه أوصل الأمور إلى استئساد دكاكين النفط وأخذها لزمام المبادرة والتأثير حتى داخل بنية دولة البعث في سورية والعراق، وإن كانت أكثر بروزاً في الحالة السورية، وحتى نكون منصفين فلا يغيب عن البال العامل الدولي والإقليمي فيما تعلق بتدمير بنية الدولة في العراق وسورية.

اليوم نحن أمام كارثة عربية لا تقل قتامةً وبؤساً عن اغتصاب فلسطين واحتلال اليهود لها، حيث تم تحجيم المقاومة في لبنان ممثلة بالحزب، وإشاعة الدمار والخراب في غزة، وتقليص قدرات حماس، وهيمنة رياح الموت الأسود على سورية وانحدارها نحو المجهول، نسأل ما الذي جرى؟ وما العمل؟ وهل لحقت بنا هزيمة ساحقة وتبخرت كل أمانينا بكسر طوق التبعية والتمهيد للتحرير؟ يجب أن نعترف بثقل الخسارة التي ألمت بالأمة جراء تدمير سورية وذهابها نحو المجهول، وكذلك تحجيم المقاومة في لبنان وغزة، كما يجب علينا أن نتوقف قليلاً أمام تجربة قرن ونيف منذ الثورة العربية على الأتراك

العثمانيين وحتى اللحظة الراهنة، ما أشرنا إليه في سياق هذا المقال جزء من مراجعة يجب أن تكون أكثر شمولاً، وهنا نحاول فقط أن نضع عناوين للمراجعة الشاملة لكنها تستحق أن يخصص لها الجهد الجماعي للتصدي لها.

منذ أن قامت دول الأقطار العربية، وما نصطلح عليها في الأدبيات القومية بـ"دول التجزئة"، كانت دولة التجزئة كمفهوم سياسي - قبل أن تكون دولة بالمعنى القائم – محكومة بالفشل والعجز المستمر لأن من صممها أراد لها أن تكون كذلك، وحرص من خط حدودها أن تتوفر دولة التجزئة العربية على شرطين: أن تكون ضعيفة بالقدر اللازم لتعجز عن مواجهة قاعدة الاستعمار في بلادنا (إسرائيل)، وأن تكون قوية بالقدر اللازم لتقمع أي حركة وحدوية تحررية. بناءً عليه، فإن البسماركية وبروسيا العرب لم يكن لها أن تنجح في ظل هذه المعادلة، وإن كان هناك تجاوز لهذه المحددات فكان يتكفل بها النظام الرسمي أو تتم الاستعانة بقوى خارجية مثل بريطانيا وفرنسا، ومن ثم جاءت الولايات المتحدة الامريكية. لهذا فسلطة الدولة وضرورة بقائها مهم جداً ولكن بالقدر الذي يمنع نشوء حركة عربية قادرة على النمو والتمدد، لهذا قلنا كان بإمكان حزب الله أن يكون هذه الحركة لولا انتماؤه المذهبي الذي قيده، وهذه نتيجة شبيهة بتجاوز عزم القصور في الفيزياء فحتى تنطلق يجب أن تتجاوز عزم القصور الذاتي الذي يمثل وزنك، ويكون العزم أكبر من الوزن، وهذا لم يفلح به الحزب مع أن تضحياته تجاوزت هذا الوزن بآلاف المرات، لكنّ عقيدة الحزب لم تكن تتبنى هذا المشروع بالشكل الذي نصفه ليصبح مشروعاً عربياً شاملاً، ولم يكن هذا في مخيلة قيادة الحزب ومرجعياته العقائدية.

لنلاحظ أن نجاح نشوء حركات مقاومة أو تحرر ظهرت عند تقلص سلطة دولة التجزئة، كما في لبنان وغزة واليمن، لنقول إن تهاوي سلطة الدولة ربما يكون منطلقاً لبناء حركة تحرر عربية تتسم بأنها جامعة شاملة للعرب من دون تفريق، ومناهضة للهيمنة، ومقاتلة حيثما استدعى الأمر، فمن حيث أرادت (إسرائيل) بناء سلطة عملاء لها في غزة ورام الله أصبحت المقاومة أصلب عوداً، ومن حيث تم تفصيل لبنان الكبير على مقاس طائفي خاضع للهيمنة الصهيونية برز حزب الله، فالفراغ كانت تملؤه قوى غير خاضعة لهيمنة القوى الكبرى، قوى أكثر انحيازاً لهموم الأمة، كما أنه يجب أن نسلم أن تحميل عبء الأمة على كاهل الحزب وحماس فيه ظلم لهما وهما بالنهاية حركات مقاومة، أما التحرير الشامل فله منازلته المختلفة وشروطها التي لم تتوفر حتى الآن، فأنت تجابه الغرب بأكمله، هذا الغرب الذي كان يوصف بالغرب الجماعي للدلالة على الوحدة، وإن بدأت تصيبه الشروخ نتيجة اعتلاء ترامب للحكم، إلا أنه بقي غرباً جماعياً في مواجهة الأمة العربية والدفاع عن قاعدته (إسرائيل).

ربما تكون الفرصة مهيأة للعمل على بناء حركة عربية تنطلق في سورية والعراق، بل يجب العمل عليها، حركة على رأس أولوياتها هدم صنم الحدود، ولعل هذه الجزئية التقطتها داعش بذكاء فأسست دولة تضم جزءاً من العراق وآخر من سورية، بمعنى أن هذا الفرض قابل للتحقق ولا قدسية للمسميات القائمة في سبيل بناء دولة الوحدة، كما أن العنصر الهام في هو هدم الانتماء القُطري أو المناطقي، فإذا استحضرنا تجارب وحدوية سابقة، مصر وسورية مثلاً، وجدنا أن هناك من لعب على وتر (هيمنة مصرية على سورية). لهذا، وإن كان الواقع العربي الراهن بعد كل المستجدات الأخيرة قاتماً ومليئاً بالهواجس والتهديدات في دوامة من التفكك، إلا أنه يمكن الاستفادة من واقع غياب سلطة تحمي صنم الحدود وصنم الهوية القُطرية، لهذا قد يكون (ليس من باب الجزم) من الضروري هدم رواسب التجزئة بهدم بناها السياسية والاقتصادية والجغرافية، لأن انحرافاً مفاهيمياً ووعياً مزوراً قد نبتا كطحالب على سطح الهوية القومية ينبغي أن يطاح به.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

المشروع القومي الطوراني: قراءة أولية لمنظمة الدول التركية

إبراهيم حرشاوي

غالباً ما يتم حصر السياسة التركية الخارجية عند كثير من المحللين العرب والأجانب في البعد المرتبط بالمشروع السياسي التوسعي التركي الذي يُطلق عليه مفهوم "العثمانية الجديدة" بحكم استهدافه البلدان العربية والمناطق التي احتلتها الإمبراطورية العثمانية في مراحل مختلفة من تاريخها، بينما تطمح تركيا في الوقت عينه إلى قيادة ما يُعرف بـ"العالم التركي"، إذ يعكس التحالف بين حزبي "العدالة والتنمية" وحزب "الحركة القومية" الطوراني التوجه، منذ سنة 2018، تحت اسم "تحالف الجمهور" (ittifaki cumhur)، هذه الاختيارات الاستراتيجية للأتراك، وهي ليست وليدة اليوم.

لفهم السياسات التركية الحالية في الوطن العربي وإفريقيا وآسيا الوسطى ودول البلقان، ينبغي العودة إلى الأبعاد التاريخية لهذا التحالف، أي إلى ما كان يراد له أن يحل محل الدولة العثمانية بعد سقوطها، وهو مشروع تركي وحدوي-توسعي يهدف بالدرجة الأولى إلى توحيد الشعوب التركية التي تربطها أصول لغوية وإثنية مشتركة. وقد ظهر هذا المشروع في الحقبة الأخيرة للدولة العثمانية وصعد في ظل طرح ديني- إصلاحي تزعمه تيار عُرف بـ"الجديدية" (jadidsm). وكان روّاد هذا التيار يروجون لأفكار دينية تحديثية مرافقة لتوجه قومي تركي يتطلع إلى وحدة الشعوب الناطقة باللغات التركية المنتشرة بالفضاء الأوراسي الشاسع، أي من تركستان الشرقية في الصين إلى منطقة غاغاوزيا بمولدافيا شرق أوروبا.

ويُعتبر إسماعيل غسبرينسكي أحد أهم وجوه هذه الحركة في الإمبراطورية الروسية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إذ ركّز في أدبياته على فكرة إنشاء لغة تركية معيارية قابلة لدفع وحدة الشعوب التركية إلى الأمام، حيث روّج لها بعبارة "لغة يفهمها صاحب قارب بالبوسفور وسائق الجمال في كاشغر". أما على المستوى الديني، فكان من بين مؤسسي "اتفاق المسلمين"، وهي هيئة سياسية تشكّلت بغرض تعزيز الرابط الديني والقومي لدى أتراك روسيا من ناحية والترويج لخطاب حداثوي لخدمة المشروع الطوراني من ناحية أخرى. وقد أصبحت الحداثة بمفهومها الليبرالي والطرح القومي

الطوراني أحد أهم مرتكزات تيار "الجديدية" الذي انتشرت مبادئه في أوساط النخبة التركية في الدولة العثمانية بعد قدوم بعض المثقفين التتار والأذريين الحاملين لهذا الفكر من منطقة القرم وغيرها من المناطق الروسية. ومن بين الأسماء اللامعة التي تركت بصمتها في اليقظة القومية التركية في الأناضول المثقف الأذري "علي حسيني زاده"، الذي يعتبر أول داعية للفكر الطوراني في تركيا العثمانية، وكان من الأوائل الذين أقحموا هنغاريا ضمن العالم الطوراني بحكم انتماء الكثير من الهنغاريين إلى الأصول الألتائية كباقي الشعوب التركية.

بالإضافة إلى علي حسيني زاده، يمكن الإشارة إلى شخصية بارزة من شبه جزيرة القرم وهو كافر سيد أحمد كريمر، الذي تولى منصب وزير الحرب في أول جمهورية تركية بالتاريخ، وهي "جمهورية القرم الشعبية" المُعلن على قيامها أواخر سنة 1917، غير أن وجودها لم يدم طويلاً حيث سقطت بعد شهر إثر سيطرة قوات الثورة البلشفية عليها. وبعد تلك التجربة، استقر في تركيا وعاصر قيام الجمهورية التركية، واعتبرها قفزة نوعية نحو تحقيق الوحدة السياسية والثقافية في العالم التركي.

ينبغي في هذا السياق المرور بإيجاز على إشكالية المسألة الثقافية في العالم التركي الناتجة عن غياب لغة معيارية مشتركة. ففي آسيا الوسطى تطورت "اللغة الجغتائية" كلغة معيارية في المجال الأدبي وأصبحت لغة معتمدة في سلطنة مغول الهند، وهي إمبراطورية إسلامية أسسها ظهير الدين بابر، واستمرت من القرن السادس عشر وحتى التاسع عشر. وتعتبر الأوزبكية والأويغورية اللغتين الحديثتين اللتين تنحدران من اللغة الجغتائية، إذ يشكّل أدب هذه اللغة جزءاً من تراثهم الثقافي. أما في سنة 1921، وتحديداً في أوزبكستان، والتي كانت وقتها جزءاً من الاتحاد السوفيتي، فكان من المقرر في البداية أن تكون الجغتائية اللغة الوطنية لجمهورية أوزبكستان السوفيتية، لكنْ عندما اتضح أنها لغة قديمة لهذا الغرض، استُبدلت بلغة أدبية جديدة مبنية على مجموعة من اللهجات الأوزبكية.

أدى هذا الإطار السياسي والثقافي إلى حالة مغايرة إلى حد بعيد عن التطور اللغوي والثقافي في الدولة العثمانية التي نهضت فيها اللغة العثمانية المتأثرة بشكل قوي بالعربية والفارسية، ناهيك عن تأثر الثقافة التركية بالأناضول والبلقان بالقيّم والعادات العربية الشامية. لذا، ستبقى المسألة الثقافية واللغوية من أبرز التحديات والعراقيل لدفع المشروع الطوراني نحو المزيد من الاندماج السياسي والتجانس الثقافي.

بالعودة إلى الفكر القومي التركي في الأناضول، يعد اسم المفكر القومي التركي ضياء غوكالب من بين الأسماء الكبيرة والمعروفة بنهلها من الأفكار "الجديدية" لبلورة الفكرة القومية في ظل المرحلة التأسيسية للجمهورية التركية. وعلى غرارغسبرينسكي، كان غوكالب يدعو بدوره إلى ضرورة توحيد اللغات التركية من دون تطهيرها من التأثيرات العربية والفارسية، وكان ينظر إلى الإسلام بالصيغة التركية وإلى الحداثة الغربية كعناصر داعمة للهوية القومية التركية، أي أنه اعتبر الحلقة القومية هي التعبير الأسمى للهوية التركية. ومن الواضح أن هذه المنطلقات هي التي جعلت من غوكالب مؤيداً للشوفينية الأتاتوركية بعدما نالت السياسة المناوئة للهوية العربية استحسانه مع إقرار رفع الأذان باللغة التركية بدلاً من العربية. وبعد قيام الجمهورية التركية وإلغاء الخلافة العثمانية، لم تتحول كل هذه الأفكار الطورانية إلى سياسة استراتيجية، بل أخذت بعداً تركياً أناضولياً، بعدما عرف المشروع الطوراني تراجعاً سياسياً بحكم "الواقعية السياسية" التي اتصفت بها فترة أتاتورك نتيجة قيام الاتحاد السوفيتي ما أدى إلى كبح جماح النزعة الطورانية. ورغم ذلك استمر الطرح الطوراني في الهيمنة على المستوى الأيديولوجي والثقافة السياسية بتركيا، وظهرت في لحظة معينة تيارات طورانية متطرفة نشطت عبر الدول التركية تزعمتها شخصيات مثل ألب أرسلان توركيش وحسين نيهال أتسز وأسست تنظيمات سياسية كـ"حزب الحركة القومية" ومجموعة "الذئاب الرمادية" التي ارتكبت جرائم عنصرية في حق الأقليات الطائفية والإثنية داخل تركيا، كما أن هذه المجموعات وُظفت في حروب إقليمية كما في الشيشان وأذربيجان.

قبل العروج على البعد السياسي لمنظمة الدول التركية التي كان تُسمى قبل نوفمبر/ تشرين الثاني من سنة 2021 بِـ"مجلس التعاون للدول الناطقة بالتركية" (وهو تعديل يحمل دلالات جوهرية في تعريف الدول المنضوية في المنظمة كدول تركية)، لا

بد من تسليط الضوء على الهوية الجغرافية لهذا المشروع. فبالنسبة للموقع الجغرافي، تعتبر آسيا الوسطى منطقة مفصلية لدى القوى الكبرى بحكم موقعها الحساس والاستراتيجي، إذ تضم عمودياً المنطقة الممتدة من سيبريا حتى الهمالايا، وأفقياً تمدد من خط أورال- قزوين إلى حدود غرب منغوليا وشمال غرب الصين. وتعد هذه المنطقة من المناطق الحبيسة نتيجة بعدها عن المحيطات، ما جعلها تتميز بصفات برية محضة. وقد كانت من الفضاءات التي ملأتها الإمبراطوريات الأورآسية خلال توسعها ومن بينها إمبراطوريتا جنكيزخان وتيمورلنك.

ما يزيد من أهمية وقيمة هذه المنطقة من منظور جغرافي-سياسي هو موقعها المركزي داخل القارة الآسيوية، بل تطابق موقعها الجغرافي إلى حد بعيد مع مفهوم "قلب العالم" للجغرافي البريطاني ماكيندر، الذي لخص جوهر هذا المفهوم على النحو التالي: "من يحكم أوروبا الشرقية يحكم قلب الأرض، ومن يحكم قلب العالم يحكم الجزيرة العالمية ومن يحكم الجزيرة العالمية يحكم العالم". ومن المعروف أن هذه النظرة للعالم تعكس الصيغة الهندسية للاستعمار البريطاني، والتي تطورت في القرن التاسع عشر في خضم تجربة التنافس الحاد بين روسيا وبريطانيا في سياق ما عُرف باللعبة الكبرى.

على الصعيد الهوياتي، اتسمت هذه المنطقة بعد انتشار الإسلام فيها بهوية مزدوجة أو ما يعرف ب"الثقافة التركية الفارسية "التي ظهرت بخرسان و بلاد ما وراء النهر، حيث هيمنت هذه الثقافة المزدوجة في عهد السامانيين والغزنويين والقراخانيين والخوارزميين، أي بعد بدء انكماش دور الدولة العباسية نتيجة لاستجلابها المرتزقة الأتراك الذين تمكنوا من السيطرة على جهاز الدولة. وما يجب الانتباه له في هذا المضمار هو أنّ معظم السلالات التي تولت حكم الدول التركية-الفارسية كانت تنتمي إلى العنصر البشري ذي الأصل الطوراني، حيث تعتبر الدولة السلجوقية والعثمانية من أكثر الدول الطورانية توسعاً صوب غرب آسيا وشرق أوروبا.

أما جيوسياسياً، فليس من باب المصادفة أن ينتعش هذا المشروع من جديد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وظهور فراغ جيوسياسي في آسيا الوسطى، حيث أدى هذا الفراغ الى وجود هوامش تتيح الفرصة أمام القوى الإقليمية لرسم سياسات جديدة إزاء هذه المنطقة بناء على مصالحها الأورآسية. ويُلاحظ مؤخراً اندفاع المسعى التركي التوسعي نحو اتخاذ خطوات تعزز الارتباطات القومية بين الشعوب التركية، ويعتبر تأسيس "المنظمة الدولية للثقافة التركية" (Turksoy) أول خطوة ملموسة في هذا الاتجاه كنتيجة لمبادرات الرئيس التركي الأسبق تورغوت أوزال الذي دعا للانفتاح على دول آسيا الوسطى على أسس قومية طورانية.

ويعود تاريخ هذه المنظمة إلى لقاءات باكو وإسطنبول سنة 1992، حيث أعلن وزراء الثقافة في كل من أذربيجان وكازخستان وقيرغيزستان وأوزبكستان وتركيا وتركمنستان ضرورة إقامة إطارٍ ثقافيٍ مشتركٍ للشعوب التركية، وكان ذلك قبل ظهور هذه المنظمة إلى العلن في مدينة ألماطاي الكزخية سنة 1993. وقد أصبحت "المنظمة الدولية للثقافة التركية" فيما بعد ركناً أساسياً لمشروع جيوسياسي وقومي ضخم يتمثل في"مجلس التعاون للدول الناطقة باللغة التركية" (المجلس التركي) الذي تأسس سنة 2009 ليجمع تحت مظلته كلاً من أذربيجان وتركيا وكازخستان وقيرغيزستان. وكان الرئيس الكزخي الأسبق المعروف بتوجهه الطوراني نورسلطان نزاربابيف من أهم الداعين لتشكيل المجلس الموحد للدول الناطقة بالتركية، وقد راح هذا المجلس يتمدد إلى دول شرق ووسط أوروبا مثل هنغاريا وأوكرانيا بناء على روابط ثقافية وإثنية.

يستدعي السياق السياسي لتلك الفترة الوقوف عند مغزى ظهور "المجلس التركي"، حيث لا يمكن الفصل بين ظهوره وبروز مجموعة " البريكس"، ناهيك عن تطوره بقدر تطوّرالسياسة الجريئة لروسيا في محيطها الإقليمي وانبثاق المشروع الصيني "حزام واحد - طريق واحد" الذي أصبح يتصدر المعادلة الإقليمية والدولية. وتندرج هذه الديناميكية في إطار ما أفرزه التراجع النسبي لمنظومة "القطب الواحد" ما منح الفرصة لأممٍ عديدة أن تبسط نفوذها على مناطق أو أقاليم تعتبرها مجالاً حيوياً لها على الصعيد الجيو- اقتصادي أو تعتبرها أراضٍ مسلوبةً أو مقتطعة من منظور قومي. فقد باتت تشكل هذه المناطق الحيوية موطئ قدم للتوسع القومي والاستراتيجي لتلك الدول، وتمثل حالات الضم التي حصلت بشبه جزيرة القرم ومرتفعات

قره باغ ومحاولات الصين السيطرة على عدد من الجزر ببحر الصين الجنوبي مجموعة نماذج آنية للتحولات التي تجري من هذا القبيل.

بخصوص ما يحوم في الأفق الإستراتيجي "للمجلس التركي"، فإن معرفة المسار الجيو- سياسي على المدى القريب والمتوسط يقتضي الوقوف عند نتائج الانتصار الساحق للتحالف التركي- الأذري في حرب قره باغ. ففي موسكو مثلاً يتنامى الخوف من فكرة " المشروع الطوراني" الذي ينتشر بسرعة ليس فقط عبر جنوب القوقاز وآسيا الوسطى، بل يكتسب شعبية واسعة أيضاً في أجزاء مختلفة من روسيا التي تعرف حضوراً واسعاً للقوميات التركية وأقليات مسلمة وازنة.

ويزداد القلق لدى صناع القرار في روسيا بعدما صعّدت أنقرة نشاطها في مجالات التعاون العسكري والتقني مع دول من حجم أوزبكستان وقيرغيزستان. وقد أدى ذلك إلى تنامي المشاعر الطورانية وتقوية اللوبي المؤيد لتركيا بين النخب السياسية في دول آسيا الوسطى عموماً. وتحاول تركيا الاستفادة من هذا الاندفاع نحوها، وخصوصاً بعد حرب قره باغ، من أجل تعزيز مصالحها التجارية والاقتصادية في الممر الرابط بين منطقتي البحر الأسود وبحر قزوين، أي عبر "طريق النقل الدولي العابر لقزوين" (*Trans-Caspian International Transport Route*) الذي يضع تركيا في الواقع على قدم المساواة مع الصين في التحكم بممر "الصّين - آسيا الوسطى - غرب آسيا"، في حين أن هذا الأمر قد يؤدي إلى إضعاف النقل التجاري الروسي بالمنطقة المتمثل في "سكة الحديد العابرة لسيبيريا" (The Trans–Siberian Railway).

أما بالنسبة لملف الأيغور، فبات القلق واضحاً لدى الصين بسبب احتمالية تبني "المجلس التركي" لهذا الملف في أي وقت يبدو مناسباً للضغط على الصين، رغم أن ما يربط الصين بكثير من دول آسيا الوسطى متين ومبني على مصالح حيوية مشتركة. وقد صرح الخبير في دراسات آسيا الوسطى بالأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية (CASS) تشانغ نينغ لـ South China Morning Post أن الدول التركية حريصة على تعزيز التعاون الاقتصادي مع الصين في مجالات الطاقة والنقل وصناديق الاستثمار، علماً أن الصين أكبر شريك تجاري لكازخستان وثاني أكبر شريك تجاري لأوزبكستان وقيرغيزستان.

من جهته، عبر "المجلس التركي" في الآونة الأخيرة عن طموحه الاستراتيجي بإصدار وثيقة "رؤية 2040" التي تهدف، بحسب الأمين العام للمجلس الأسبق بغداد أمرييف، إلى بلورة خارطة طريق حتى عام 2040. وقد أكّد أمرييف في تصريح أدلى به لوكالة الأناضول على نيّة المجلس إنشاء الولايات التركية المتحدة على المدى الطويل. وعلى نفس المنوال أدلى الرئيس التركي إردوغان بموقف مماثل في الذكرى السنوية لتأسيس المجلس، حيث دعا إلى مواصلة العمل من أجل تحقيق الوحدة بين جميع الدول الأعضاء. وتحتوي رؤية 2040 في خطوطها العريضة على الرغبة في تنسيق السياسة الخارجية والتعاون الأمني بالإضافة إلى فتح المجال أمام التبادل الاقتصادي الحر وتطوير اللغة التركية وتوحيد الأبجدية تحت إشراف الأكاديمية التركية الدولية.

إن المشروع القومي التركي التوسعي أصبح تحدياً استراتيجياً لكثيرٍ من الأمم التي تحتك به بشكل مباشر كروسيا والصين. أما عربياً، فيلاحظ توغل تركي ميداني منذ اندلاع أحداث "الربيع العربي" عبر توظيف الأقليات التركية كالأقلية الكراغلية والتركمانية في الساحتين الليبية والسورية، بالإضافة إلى الدعم التركي اللا محدود لحركة الإخوان المسلمين. وتواجه إيران

بدورها نفس التهديد بعد حسم معركة قره باغ نتيجة لوجود ميولات انفصالية بالمنطقة الواقعة شمال غرب إيران التي تقطنها أغلبية من أصول أذرية-تركية.

ومن المرشح أن تتوجه السياسة الإيرانية نحو إعادة الاعتبار لفكرة "إيران الكبرى" بعد تقهقر محور المقاومة الذي تقوده إيران في المشرق العربي بعد طوفان الأقصى، علماً بأن هذا التوجه القومي قد يحمي إيران من تصاعد الضغوطات الطورانية في محيطها الجغرافي المباشر، أي في الدول المجاورة التي لها علاقات تاريخية وحضارية بالأمة الفارسية. وتجدر الإشارة هنا، ولو باختصار، إلى مضمون الحركة القومية الإيرانية التي كانت نشطة طوال ثلاثينيات القرن العشرين، حيث كانت تمثل تحالفاً شعبياً غير منظم يضم كُتّاباً ومعلمين وطلاباً وناشطين ووطنيين. ومن ناحية الفكر القومي الإيراني، يرتبط اسم المفكر الإيراني محمود أفشار بالقومية الإيرانية في أوائل عشرينيات القرن الماضي، التي طرحها آنذاك كمشروع سياسي مناهض للقومية التركية والقومية العربية، باعتبارهما تهديدات محتملة لسلامة ووحدة الأراضي الإيرانية.

وكان الحزب القومي الإيراني الذي تأسس في سنة 1941 أول منظمة تتبنى رسمياً موقف القومية الإيرانية، معبرةً عن تضامن وتوحيد "الشعوب الإيرانية" القاطنة على الهضبة الإيرانية. وتقع هذه الهضبة بين جبال زاغروس إلى الغرب، وبحر قزوين وجبل كوبت داغ إلى الشمال، ومرتفعات أرمينيا وجبال القوقاز إلى الشمال الغربي، ومضيق هرمز والخليج العربي إلى الجنوب، وشبه القارة الهندية إلى الجنوب الشرقي. وعلى عكس توقعات القوميين الأتراك، أصبحت النزعة القومية الإيرانية لدى المثقفين الأذربيجانيين في إيران في تلك المرحلة، أي بعد الثورة الدستورية في إيران (1905-1911)، سلاحاً في وجه الأطماع التركية، حيث تم اقتراح سياسات التجانس اللغوي بعدما رأوا أن تقوية وحدة أراضي البلاد هي الخطوة الأولى في بناء مجتمع قائم على القانون والدولة الحديثة.

وعلى هذه الخلفية، يمكن استشراف أن تكون العقود المقبلة بأوراسيا مشحونة بتنافس حادٍ بين الأمم الآسيوية الصاعدة، ناهيك عن احتمالية بروز تحالف أوراسي مناهض للأتراك في حال تطوّر المشروع الطوراني إلى مرحلة متقدمة من الاندماج القومي والأمني. فالدول الوازنة التي تشعر بالخطر الطوراني الداهم هي الصين وإيران وروسيا، وبالتالي قد يتحوّل هذا التحالف الثلاثي إلى محور استراتيجي يقود المشروع المضاد للمد الطوراني، إذ من المرشح أن تنضوي تحته في هذه الحالة الدول الصغيرة وتياراتها القومية المتضررة من التوسع الطوراني كأرمينيا وقبرص واليونان ودول البلقان الأرثوذكسية، بالإضافة إلى احتمال ظهور تحالف قومي عربي وكردي بالعراق وسورية لصد التوغل التكفيري-التركي.

ومن المؤكد أنّ بناء مبادرة سياسية عربية عابرة للحدود القطرية من قبل فصائل المقاومة أصبحت ضرورة ملحة في التعامل مع الواقع العربي المنهار، وخصوصاً بعد سقوط الدولة السورية. فحقيقة وجود أمن قومي عربي متهالك أمر لا مفر من الإقرار به، وإن ما يجري اليوم من توغل تركي بأدوات تكفيرية لا يمكن التعامل معه إلا بمنطق قومي عربي يعد العدة لتوفير المقومات السياسية والتنفيذية لمواجهات التحدي الطوراني وغيره من التحديات الوجودية للأمة العربية في القرن الواحد والعشرين.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

ترامب وفوضى الإمبراطورية: زلازل السياسة الأمريكية ومهماتنا

محمد علي الهلالي

تمهيد: الوجه العاري للإمبراطورية

منذ عقود، والولايات المتحدة تُسوّق نفسها للعالم على أنها الحارس الأمين للديمقراطية، والمدافع الأول عن "الحرية"، والمصدر الحصري للنظام الدولي. لكنها في الحقيقة، كما يدرك كل عربيٍ حر، ليست سوى إمبراطورية استعمارية جديدة، تتقن لبس الأقنعة، وتُمارس الخنق الناعم للشعوب تحت غطاء الشراكة والمساعدات.

جاء دونالد ترامب، لا كمجرد زائر غريب على هذا المسرح، بل ككاشف للحقيقة. لم يُخرّب النظام، بل نزع قناعه. لم يُسقط التحالفات، بل فضح هشاشتها. لم يُحدِث الفوضى، بل كشفها للعالم كما هي: فوضى مبرمجة، تمارسها واشنطن منذ زمن طويل، ولكن هذه المرة بلا رتوش.

منذ عقود طويلة، والولايات المتحدة الأمريكية تقدّم نفسها للعالم على أنها حامية الديمقراطية، حارسة النظام العالمي، وصديقة الشعوب "الحرة". لكن الحقيقة التي يعرفها كل عربي واعٍ هي أن هذه الدولة ليست سوى إمبراطورية استعمارية جديدة، تلبس قناع الإنسانية بينما تغرس خنجرها في ظهور الضعفاء. إمبراطورية استعمارية تتقن لبس الأقنعة، وتُمارس الخنق الناعم للشعوب تحت غطاء الشراكة والمساعدات.

جاء دونالد ترامب إلى الساحة السياسية الأمريكية، لا كخارج عن القاعدة، بل كتجسيد صريح وفاضح لما كانت تخفيه تلك القاعدة طوال الوقت. ترامب لم يفسد النظام الأمريكي، بل فضح فساده. لم يخرّب العلاقات الدولية، بل كشف عن زيفها.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

من منظور قومي عربي، لا يمكننا النظر إلى "ظاهرة ترامب" كحدث معزول أو مجرد فاصل في السياسة الأمريكية، بل كحقيقة ظهرت للعلن: الولايات المتحدة لم تكن يوماً شريكاً أو حليفاً نزيهاً، وإنما تاجر مصالح، ولص موارد، وعرّاب فوضى، يتحكم بمصائر الشعوب من خلف ستار من الأكاذيب.

ولكن، لماذا هذا الاضطراب الذي يحدثه ترامب في الداخل الأمريكي ومع حلفائه في الخارج؟ ولماذا أصبح مصدر قلق عالمي؟ وهل ما نراه فوضى حقيقية، أم خطة لإعادة ترتيب الأوراق وفق منطق الهيمنة لا الشراكة؟

أولاً: من الشراكة إلى البلطجة السياسية. ترامب هو الوجه الحقيقي لإمبراطورية لم تعد تخجل من طمعها.

كان الرؤساء الأمريكيون يُجيدون فن الخطابة. يتحدثون عن "قيم مشتركة"، وعن التحالفات طويلة الأمد، وعن التزاماتهم بـ"حماية الحلفاء". لكن ترامب جاء بلغة أوضح : ادفع... أو انسَ الحماية.

لقد حوّل السياسة الخارجية الأمريكية إلى صفقة تجارية. طلب من الأوروبيين تمويل "حمايتهم"، ومن اليابانيين والكوريين الإذعان الكامل، ومن العرب تسليم أوراقهم بالكامل للاحتلال الصهيوني.

لم يكن هذا سلوكاً طائشاً فقط، بل إشارة استراتيجية من قلب الدولة الجديدة في واشنطن: نحن لا نريد تمثيل دور "القيادة الأخلاقية للعالم" بعد الآن، بل نريد فرض الهيمنة بالبلطجة العلنية.

إنه منطق السوق، لا منطق الأمم. من يدفع أكثر، يجلس قرب العرش؛ ومن يتلكأ، يُقصَ.

ثانياً: فوضى الإمبراطورية الذاهبة. ترامب يعكس سلوك إمبراطورية تحتضر.

القوى الصاعدة لا تتحدث كثيراً. الصين تنمو، والجنوب العالمي يستيقظ، والروس يُناورون بذكاء، بينما واشنطن تصرخ كغول مجروح.

القوة العظمى الواثقة من موقعها تبني التحالفات وتدير اللعبة بحنكة. أما القوة التي تشعر بانحدارها، فإنها تصرخ، تتصرف برعونة، وتخلط الأوراق. ترامب هو تعبير عن الولايات المتحدة التي بدأت تفقد احتكارها للهيمنة العالمية. أمام صعود الصين، تحدي روسيا، وتمرد الجنوب العالمي، أصبح الصوت الأمريكي أكثر فوضوية وأقرب إلى التهديد المباشر. لا وقت لديهم للدبلوماسية، ولا مجال للنفاق.
ترامب لم يُضعف الولايات المتحدة؛ بل أظهر للعالم هشاشتها. القوة العظمى حين تُدرك أنها تفقد مركزها، تتحول إلى قوة فوضى، لا قوة توازن.

ثالثاً: ما وراء الفوضى، هل من سيناريو استخباراتي ممكن؟

ما نراه ليس مجرد طيش رئيس أرعن. بل هناك ما يُشير إلى وجود عقل بارد خلف الفوضى الساخنة. تيار داخل الدولة العميقة، وخصوصاً الأجهزة الاستخباراتية والمجمّع الصناعي العسكري، يرى أن الوقت حان لضرب "النظام الدولي" القديم وتفكيك التحالفات، لإعادة ترتيب العالم على أساس الهيمنة المطلقة.

قد يبدو ترامب فوضوياً للوهلة الأولى، لكن ما يحدث هو على الأرجح تنفيذ لخطة "الصدمة" من داخل أروقة الاستخبارات والمجمّع الصناعي العسكري. هذا التيار يرى أن بروز الصين والتحولات الجيوسياسية في الجنوب العالمي تُهدد المركزية الأمريكية، ويؤمن بأن الحفاظ على الهيمنة لا يمكن أن يتم بالأساليب التقليدية.
لذلك، يتم التخلي عن الشراكات، ونسف التحالفات، وخلق حالة عالمية من الفوضى المقصودة التي تعرقل صعود المنافسين.
الهدف؟ تفكيك الاستقرار العالمي وفرض "الوقاحة الاستراتيجية" كبديل للدبلوماسية، مع تحويل واشنطن إلى زعيم عصابة عالمي لا قائد أخلاقي.

الفكرة بسيطة وخطيرة:
–لا تحالفات، بل زبائن.
–لا قانون دولي، بل قوة عضلات.
–لا دبلوماسية، بل ابتزاز مباشر.
بهذا المنطق، يصبح ترامب أداة في إعادة ضبط الإمبراطورية، لا خروجاً عنها.

رابعاً: ترامب والمجتمع الأمريكي... الانهيار من الداخل. ترامب يستنهض أسوأ ما في المجتمع الأمريكي.

ترامب لم يكن فقط أزمة خارجية. بل عبّر عن أمراض المجتمع الأمريكي ذاته:

عنصري، انعزالي، يكره كل ما هو غير أبيض أو غير رأسمالي.

لقد كشف للعالم أن المجتمع الأمريكي لم يتجاوز بعد عقده العنصرية، ولا يرى في العالم إلا تابعاً أو عدواً.

من العنصرية العرقية، إلى الانعزالية الثقافية، إلى الاحتقار العلني للعالم الخارجي. نحن العرب لم نكن بحاجة إلى ترامب لنكتشف ذلك، فقد رأينا أفعاله في العراق وفلسطين وليبيا وسورية. لكن مع ترامب، أُزيلت الأقنعة تماماً. لم يبقَ إلا الشعار الوقح: *أمريكا أولاً* ، أي اسحقوا الآخرين إن لزم الأمر.

خامساً: رسالة للعرب، الحليف ليس سوى تابع. ترامب يكشف أن الحلفاء ليسوا إلا عملاء مأجورين.

الأوروبيون الذين طالما تغنّوا بعلاقاتهم مع واشنطن، وجدوا أنفسهم فجأة ضحايا الابتزاز العلني. الكنديون، اليابانيون، الكوريون الجنوبيون، كلهم تعرضوا لصفعات سياسية واقتصادية. بالنسبة للعرب، هذه لحظة لفهم الحقيقة العارية: الولايات المتحدة لا تُقيم حلفاء، بل تصنع توابع تدفع، تُطيع، وتُصفق.

ضُرب الأوروبيون، أُهين اليابانيون، وابتُز الكوريون. كل من ظن أن أمريكا "صديق"، أدرك متأخراً أنه كان مجرد ورقة يُحرقها البيت الأبيض عند أول فرصة.

سادساً: لحظة الفرصة... لا الفوضى

في خضم هذا الانهيار المبطّن بالفوضى، توجد فرصة ذهبية للعرب.

فرصة لبناء مشروع وحدوي حقيقي.

فرصة لتحرير القرار السياسي والاقتصادي من الوصاية.

فرصة للتعامل مع القوى الصاعدة بنديّة، بدلاً من التبعية.

لكن هذا الطريق لا يمر عبر الأنظمة الحالية. فمعظمها جزء من المشكلة، لا الحل.

سابعاً: ترامب هو عرض مرضي، والمرض هو الإمبراطورية نفسها

ترامب ليس السبب، بل العَرَض. عرض لانهيارٍ بدأ منذ سنوات. تماماً كما تفعل كل الإمبراطوريات عندما تبدأ بالسقوط: تصبح أكثر وحشية، أكثر غطرسة، وتبدأ بإطلاقٍ النار على أقرب المقربين لها. الإمبراطورية الأمريكية دخلت مرحلة الانحسار، وكل ما نراه ليس إلا صراخ الغريق.

التاريخ لا يرحم. كل إمبراطورية تبلغ ذروتها، ثم تبدأ بالانحدار.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

ما نراه اليوم هو فصل متأخر من هذه الرواية. وترامب ليس سوى شخصية تكثّف السقوط وتُسرّعه. لقد سقطت الإمبراطوريات الرومانية، والعثمانية، والبريطانية،... واليوم تتهاوى الإمبراطورية الأمريكية، على يد من ظنّ نفسه مخلّصها.

نداء إلى الشعب العربي

لسنا في وهمٍ بأن أنظمتنا الحاكمة ستقود هذه النهضة، فهي غارقة في التبعية، متورطة في التحالف مع المشروع الاستعماري، وتعمل ضد مصالح "شعوبها" وأمتها. هذه الأنظمة – في غالبيتها – لا تمثلنا، ولا تعبر عن طموحاتنا، بل تقمع كل صوت حر وتُطارد كل مشروع وطني حقيقي.

لذلك، فإن نداءنا ليس موجّهاً للأنظمة، بل لشعبنا الحر، لعقوله الواعية، والقلوب التي لم تُدنّس بالخنوع. ما نراه اليوم من فوضى في عاصمة الإمبراطورية، ومن تهالكٍ في منظومتها السياسية، ليس إلا نافذة تاريخية نادرة. فالولايات المتحدة لم تعد تلك القوة المطلقة. ترامب ليس مجرّد شخص؛ بل هو تجلٍّ صريح لانحدار منظومةٍ كانت تتزين بالدبلوماسية وهي تغرز أنيابها في رقابنا.

لقد حان وقت الصحوة، لا لمجرد الغضب، بل للتنظيم والعمل والنهضة.

آن لنا أن ننبذ الأوهام، أن نكف عن الركض خلف واشنطن أو باريس أو موسكو، وأن نستعيد قرارنا من أيدي الفاسدين والمُطبّعين والمُرتزقة.

نهضتنا لن تأتي من قصور الرؤساء، بل من وعي الناس، من الجامعات، من المساجد، من الشوارع، من الأرض التي تعرف أقدام الفلاحين والمجاهدين.

الفرصة أمامنا... والتاريخ لا ينتظر أحداً.

آن الأوان لنصوغ مشروعاً تحررياً عربياً شاملاً، لا يستمد شرعيته من واشنطن أو موسكو أو باريس، بل من وجع الأمة، ومن أحلامها، ومن دماء شهدائها. آن لنا أن نستعيد قرارنا، لا بالاحتجاج فقط، بل بالبناء والتنظيم. من الجامعات، من الشوارع، من كل منبر حر.

علينا أن نُدرك: لا أحد سيمنحنا مكاناً بين الأمم الكبرى. نحن من نصنع الطاولة، ونضع عليها مشروع أمتنا.

لن يمنحنا أحد مكاناً على طاولة الكبار، نحن من نصنع الطاولة، ونرسم الخريطة، ونكتب المستقبل. وإذا كان ترامب فصلاً من فصول النهاية لإمبراطورية جائرة، فإن السؤال الذي يجب أن نواجهه بصدق هو: هل نحن، أبناء الأمة، مستعدون لما بعد سقوط الإمبراطورية؟

وهل سنملأ الفراغ بالكرامة والسيادة؟ أم نُسلّمه من جديد إلى خدمٍ جدد للاستعمار؟

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

العرب والعروبة، لماذا ننكر ذاتنا القومية لصالح كولونيالي؟

فارس سعادة

تمظهرت الكثير من الظواهر السيئة خلال العقدين الأخيرين في الوطن العربي الكبير، أوضح هذه الظواهر هي الطائفية والتنصل من الانتماء والهوية العربية لصالح هويات فرعية بعضها غير حقيقي ومتخيل ومصطنع إذ تم اختراع تقاليد تاريخية مستجلبة من زمانٍ سحيق لتعزيز هذه الهويات الفارغة كالأمازيغية مثلاً أو الآرامية وغيرها من هويات تحولت إلى خناجر في ظهر العروبة التي تنازع أبناؤها للاعتراف بها كهوية قومية تاريخية حقيقية واضحة وظاهرة، بل وضرورة وجودية لكل من يعيش في هذا الوطن العربي ويتحدث اللغة العربية.

هذه الهويات المتخيلة حديثاً لا تعني عدم وجود الآراميين مثلاً كشعب ظهر وعاش في مناطق بلاد الشام والعراق، أو العموريين الذين ظهروا ونشأوا في بلاد الشام وسيطروا على كل المنطقة وأسسوا بابل وكان أشهر قادتهم حمورابي، ولكن لا بد أن نسأل عن سبب ظهور هذه الهويات الآن في ظل الهيمنة الغربية وعلى أي أساس بنيت هذه الهويات بالرغم من عدم ظهورها في ظل انتشار الإسلام العربي في المنطقة وذوبان هذه الهويات وحامليها في البوتقة العربية الكبيرة لغوياً وثقافياً وفي نهاية الأمر دينياً! فهذا الذوبان لم يحدث على سبيل المثال في بلاد فارس أو في وسط آسيا أو في مناطق الأناضول وصولاً إلى بخارى وسمرقند حتى شبه الجزيرة الإيبيرية؟

قبل الحديث عن إنكار الذات القومية في المجتمع العربي أو حتى المجتمعات العربية، سنذكر في المقابل تجارب الشعوب الأخرى المعاصرة لنا وكيفية تعاملها مع هوياتها القومية. نبدأ بالجيران التاريخيين لنا في تركيا وإيران، ففي تركيا يتم استجلاب شخصيات وأحداث من التاريخ السحيق لتعزيز هذه القومية من جهة والدولة من جهة أخرى، فجذور القومية التركية تعود للقبائل التركية في آسيا الوسطى، لذلك يعتبر مودو شانيو أحد أهم رموز القومية التركية وموحد القبائل التركية الأول، وكان من أعظم حكام الهون "Xiongnu"، ومن ثم كان القائد بومين خان مؤسس الخاقانية التركية " Gokturk

Khaganate" وقد قاد الأتراك ضد الهيمنة الوارانية (من واران، وهم فرس)، وأسس أول دولة تركية مستقلة. الأمثلة تطول من إستامي خان وتيمور لينك وصولاً إلى كمال أتاتورك.

تمثل الجهورية الإسلامية في إيران المثال الحي للفخر بالتاريخ القديم رغم تضارب أيديولوجيا الحاضر مع الماضي، فرغم الاتجاه اليميني الراديكالي للنخب الحاكمة في إيران والتصاقها بالإسلام كأساس فكري وعملي لعملها كدولة، إلا أنها تعمل على تعزيز التاريخ القديم متمثلاً بالإمبراطورية الفارسية في مختلف أطوارها التاريخية كأساس تاريخي لها كبلاد فارس وإيران الحديثة، بل وتستجلب التاريخ الفارسي القديم ليس فقط كمعزز بل كشرعية سياسية وتاريخية لها ولمشروعها القومي منذ ثمانينيات القرن الماضي.

بدايةً من كورش الكبير وداريوس الأول وصولاً إلى زركيس الأول وأردشير الأول، وليس انتهاءً بكسرى ونادر شاه، تستجلب إيران كل رموزها التاريخية ما قبل الإسلام لتعزيز سرديتها التاريخية والسياسية في المنطقة والعالم فهم ورثة الحضارة الفارسية الجميلة، وهم ورثة الدولة الصفوية حصن الشيعة المنيع. وكل ما ذكر أعلاه بالمناسبة حق قومي للترك والفرس ولا يمكن للآخرين المزاودة عليهم من زاويا الفخر القومي والاعتزاز بهويتهم القومية بعيداً عن النزاعات والصراعات بينهم وبين الآخرين شرقاً وغرباً، ولكن بشرط ألا يتعارض مع العرب وحقوقهم التاريخية ثقافياً وجغرافياً، فلنا ما لنا من أراضٍ محتلة غرباً وشرقاً. فكما يفتخر العرب بالشعر والأدب العربي يفتخر الفرس بالأدب الفارسي، ويفتخر الترك بالجيوش الهمجية التركية ومجازرهم الكبيرة ضد العرب والأرمن والكرد.

التاريخ ليس مجرد أحداث مضت وانتهت في سياقها التاريخي، بل هو ساحات للصراع على الذاكرة والهوية والشرعية التاريخية، فالدول والقوميات تبني نفسها وتعزز وجودها عبر السرديات التاريخية، وأغلب الدول تملك سردية أو أسطورة تأسيسية لها ككيان "اجتماعي سياسي"، فالدولة أولاً هي كائن اجتماعي لا يُحتمل وجوده بلا ماضٍ حقيقي أو متخيل، كما في حالة الكيان المتخيل على أرض فلسطين. هذه السرديات أو الروايات تحتمل الإدماج، أو الاستبعاد لمكون أو أكثر داخل الدولة أو خارجها للتحرير أو القمع، فالفهم النقدي للتاريخ هو مفتاح فهم هذه الشعوب والقوميات لنفسها وهويتها ووعيها لذاتها لا بذاتها، ففهم ووعي تاريخها يحقق لها الاستقرار النفسي التاريخي على المستوى الجمعي.

نذهب غرباً إلى ألمانيا التي وحدها بسمارك 1871، وحدها تحت قيادة بروسيا بالحديد والنار كما يقولون، واستطاع تأسيس دولة قوية، إذ إن ألمانيا بعد بسمارك ليست ألمانيا قبل بسمارك! فهي كبيرة أوروبا بالنظر إلى القاعدة الاقتصادية التي بدأت منذ عهد بسمارك وتوحيد المقاطعات الألمانية واحدة تلو الأخرى وربطها بطرق المواصلات عبر قاعدة إنتاجية رأسمالية كانت سبباً في تعزيز القومية الألمانية الحديثة، والتي بكل تأكيد كانت تقف على أرضية تاريخية وهوية مشتركة ربطتها اللغة الجرمانية وتاريخ القبائل الجرمانية ورموز وطنية مختلفة.

جنوباً في القارة الأوروبية نزور إيطاليا التي عملت حركة النهضة "الريسورجيمنتو" بقيادة غاريبالدي خلال القرن التاسع عشر على توحيد إيطاليا بالاعتماد على الإرث الروماني وتاريخ روما الطويل، ومن ثم ارتكزت الحركة التوحيدية في إيطاليا على مقاومة الاحتلال الأجنبي والهيمنة النمساوية والفرنسية على أجزاء من إيطاليا وتم من خلالها تعزيز الروح القومية الإيطالية في مواجهة هذه الاحتلالات الأجنبية. وبالتأكيد تم جلب الموسيقى والفنون والأدب وغيرها من رموز قومية قديمة وحديثة لبث روح الفخر والعزة في نفوس الإيطاليين. وما ميز الحركة القومية الإيطالية هو ارتكازها عبر قائدها غاريبالدي

على أسس حركة إيطاليا الفتاة التي أسسها جوزيبي مازيني للنضال من أجل الجمهورية الإيطالية الموحدة وغيرها من حركات المقاومة ضد الحكام المحليين النمساويين كما حدث في صقلية عام 1820م.

جميع هذه الحركات كانت حركات عنيفة بشكل أو بآخر وبدرجات متفاوتة، ففي ألمانيا كانت بروسيا تقضم المقاطعات الألمانية واحدة تلو الأخرى تحت ضربات المدافع البروسية الموحدة، وفي إيطاليا قاد غاريبالدي والقمصان الحمراء جيش المتطوعين لتحرير صقلية ونابولي ومن ثم لومبارديا والبندقية. بالتالي لا يمكن فصل النظرية عن الممارسة هنا فالـ "براكسيس" الغرامشي كان حقيقياً في جميع الحركات أو التنظيمات أو حتى الدول التي عملت على توحيد شعبها تحت حكم الدولة الحديثة، وإن اختلفنا على دقة التوصيف إلا أنه يصعب على أي حركة ناجحة ألا توازي بين النظرية والممارسة.

كانت إطالة لا بد منها قبيل الحديث حول ظاهرة إنكار العروبة والهوية العربية لطرح حقائق تاريخية حول القوميات الأخرى وهي جزء من كل عالمي قومي، فلا يوجد دول حقيقية غير قومية أو لا تعمل بشكل قومي لصالح قوميتها أي شعبها وأرضها وتاريخها ومستقبلها هي وشعبها، ففي الولايات المتحدة على سبيل المثال ترتكز القومية الأمريكية الحديثة المصطنعة على المؤسسات والقانون و"الطريقة الأمريكية في العيش" من ضمن ركائز أخرى، وهكذا دواليك تتبع الدول المختلفة أطراً ونظرياتٍ وحقائقَ أو أكاذيبَ مختلفةً لضمان الوحدة القومية وعدم تفتيت سكانها إلا نحن العرب في العصر الحديث نعمل عكس هذه الحقائق أو تحيد ببعضنا الطرق نحو خزعبلات ليبرالية أو إسلاموية مختلفة.

يمكن تعريف إنكار الذات القومية على المستوى الفردي بأنه تخلي الفرد عن انتمائه القومي أو/ والثقافي لصالح هوية أخرى دينية كانت أم عرقية أم عالمية أم حيوانية. أما على المستوى الجماعي فهي تعني قيام دولة أو نظام سياسي بقمع مكونات الهوية القومية وتهميشها لصالح هويات بديلة، مما يؤدي إلى استعمار ثقافي من نوع مختلف يعشعش في عقول الأفراد والجماعات بلا أي أرضية تاريخية صلبة مثال ذلك "الأمازيغ، الآشوريون، الآراميون، الأنباط"، وغيرهم من منادي الهويات المفتعلة الجديدة!

تتصاعد الأصوات النباحة بالحكم الذاتي في مشرق الوطن العربي بشكل كبير منذ غزو العراق عام 2003، وقد ازدادت وتيرة هذه الصرخات الـ"ستوكهولمية" منذ اجتياح "الزومبجيين"، بحسب وصف الرفيق إبراهيم علوش، شوارع الوطن العربي بحجة "ربيع الحريات" من ليبيا إلى سورية واليمن، هذا الربيع الأصفر الذي جلب الفوضى وحرق الشجر وكسر الحجر وسفك الدماء العربية الطاهرة من المحيط الضائع إلى الخليج الغارق في أحلام ليبرالية متجددة. المهم هنا إدراك الحقيقة المتمثلة بنقطتين رئيسيتين من بين عدة نقاط لا مجال لطرحها كلها هنا.

الحقيقة الأولى تتمثل في أقدمية القومية العربية على أغلب القوميات على وجه الكرة الأرضية، فلو سلمنا بما يريده الغرب لنا أن نسلم به، وهو أن أقدم ذكر للعرب كان في العام 800 قبل الميلاد تقريباً، وأن الانتشار العربي كان في مناطق الجزيرة العربية والبادية السورية العراقية وجنوب بلاد الشام فقط، وأنه كان تواجداً جزئياً يشكل جزءاً من عدة أجزاء بشرية مختلفة "آرامية وآشورية ومصرية"، فستبقى هذه القومية وهذا التواجد هو الأقدم والأكثر استمرارية في التاريخ البشري إلى جانب الصين، وهذا لأسباب عدة أهمها الاستمرارية الحضارية عبر اللغة والتراث الثقافي المتواصل منذ ذلك التاريخ المفترض، وهو التواجد الوحيد بين ما ذكر من شعوب أخرى المستمر بقوة إلى يومنا هذا، وهو الذي رسم وشذب الألفي سنة الماضية، بالتالي لا يمكن نكران هذه الحقيقة وهي أولوية العرب والعروبة في المنطقة وأحقيتهم التاريخية فيها، وما هو غير ذلك يستجوب السؤال التالي: لماذا قبل أهل الدول العربية الحالية منذ القدم، مثل سورية والعراق والبحرين وقطر ومصر اللغة العربية والعادات والتقاليد العربية ولم تقبل باللغة اللاتينية أو اليونانية أو الفارسية أو التركية أو الإنجليزية أو الفرنسية؟ ولماذا هي عربية الأسماء والثقافة الآن وليست غربية أو رومانية أو يونانية الثقافة مثلاً بالرغم من خضوع هذه الدول لمئات السنيين من الاحتلالات والهيمنات الأجنبية المختلفة؟ وإن كان الجواب أن ذلك جاء بسبب الإسلام! فالرد يأتي عبر المسيحية، إذ إن المسيحية بالرغم من منبتها العربي القديم أو الشرقي، فإنها لم تسلم من غربنتها أوروبياً منذ حقبة الاحتلال الروماني، وبالرغم من ذلك بقي المسيحيون العرب في غالبيتهم ذوي انتماء عربي.

الحقيقة الثانية، هي فقدان الاتصال مع التاريخ القديم عربياً بسبب مركزية المعرفة في العالم منذ الثورة الصناعية في أوروبا، كما ساهمت الكثير من الروايات الإسلامية الدخيلة في حرف هذه السرديات عن الحقيقة، ومن أهم هذه السرديات "الإسرائيليات"، كما تم تهميش العقل والمساهمات العربية المختلفة في حقل التاريخ ناهيك عن سيطرتهم على السرديات التاريخية العلمية والمنهجية لأسباب مختلفة. وللتوضيح حول هذه المسألة، نذكر أن علم الآثار هو الأداة الرئيسية لدراسة التاريخ حديثاً ومن خلاله تم خلق السرديات التاريخية حول الجغرافيا والبشر، إذ إن عمليات البحث الأثري جاءت في سياق التنافس الكولونيالي المحتدم على المنطقة العربية من جهة وكأداة لتفعيل وتأكيد هذه الهيمنة وهذا ما حدث!

كانت العراق سباقة في جذب الأطماع الكولونيالية في المنطقة العربية تزامناً مع مصر العربية، فقط أصبحت الاستكشافات الأثرية في العراق أداة لتعزيز النفوذ والهيمنة الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر أي خلال الاحتلال والحكم العثماني للوطن العربي! وبسبب هذه الآثار تحولت المتاحف الغربية إلى ساحات حرب باردة بين هذه القوى الكولونيالية.

ارتبطت الحفريات الأثرية بالصراع الكولونيالي في القرن التاسع عشر، ففي العام 1843 حصل بول إميل بوتا على دعم مالي وعسكري من الحكومة الفرنسية خلال اكتشافه غير العلمي ولا المنهجي بل الهمجي في منطقة خورسباد، والتي جعلت متحف اللوفر مركزاً للآثار "الشرقية"، الأمر الذي عزز هيبة فرنسا ومكانتها "كحامية للثقافة العالمية"، وإذ ببريطانيا ترد على هذا العمل بإرسال هنري لايارد عام 1845 ممولاً بالجنيهات الإنجليزية لاكتشاف نينوى والإمبراطورية الآشورية وكنوز "النمرود" والتي نقلت بدورها إلى المتحف البريطاني في لندن مما عزز دور بريطانيا كحامي للثقافة العالمية من جهة وخلق ربطاً جديداً بين الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية الآشورية "العالمية" بحسبهم. وبعد أعوام قليلة، وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر، دخلت ألمانيا الصراع الكولونيالي على المنطقة عبر روبرت كولدواي عام 1899 في بابل، والمميز هنا أن البعثة كانت بدعم مباشر من القيصر فيلهلم الثاني إذ أراد أن يعزز دور ألمانيا ومكانتها كقوة عظمى من جهة وكرمز للتفوق الألماني في مجال الآثار "الشرقية".

في الحقيقة كل ما ذكر أعلاه لم يكن جهوداً تنويرية أو علمية كما يدعي الأوروبيون، بل كانت سرقة منظمة للتراث المادي للعرب والمنطقة عموماً، فهي كانت غنائم حرب باردة ساكنة سرقوها ووضعوها في متاحفهم وكمبرر لإبراز التفوق وتأكيد للهيمنة وإظهار أوروبا كوريث شرعي للحضارات، وخصوصاً حضارات ما بين النهرين لا مصر، وهذا موضوع آخر يناقش في مكانه.

كما كانت هذه الحفريات تستخدم للابتزاز السياسي أهمها المطالبات التوراتية، وخصوصاً بعد اكتشاف ألواح الطوفان وعموم الكتابات المسمارية المختلفة في العراق، مما دعم روايتهم التوراتية بحسب رأيهم وأعطى شرعية دينية وتاريخية للوجود الكولونيالي في أرض الكتاب المقدس كما يقرأها العقل الغربي. ولا ننسى أن الدولة العثمانية تعاملت مع الأرض العربية كسلعة للبيع والشراء بحسب واقعها التاريخي، فقد كانت فرمانات الحفر تعطى بحسب من يدفع أكثر أو يقدم الدعم للدولة العثمانية من غير حسيب أو رقيب، ودليل ذلك حجم الآثار التي سرقت "قانونياً" خلال القرن التاسع عشر في المنتصف الأول والثاني أي قبل السلطان المقبور عبد الحميد بعقود طويلة، وقد توجت هذه السرقات بالاتفاقية السرية الشهيرة التي افتضحت أمرها لاحقاً بين فرنسا وبريطانيا العام 1914 بتقاسم التراث "العثماني" فيما بينهما أي سرقة الآثار والتاريخ العربي القديم.

في المحصلة كانت الحفريات الأثرية وجهاً آخر للكولونيالية، فهي مصدر هيمنة للغرب، من خلال إثبات التفوق، وأداة لتبرير المشاريع الكولونيالية عبر حجة حماية الحضارة المهددة، وغنيمة مادية تعزز متاحفهم وقومياتهم المبنية على الاستعمار والحرب.

جاء هذا الشرح الطويل لتوضيح أهمية التاريخ في أعين الأعداء ومحاولة لشرح أهمية الآثار المادية لأصحابها هنا أو في أي مكان آخر، وفي نفس الوقت تمهيداً للحقيقة التي تؤكد أن هذه الآثار هي ملك للعرب الحاليين بعيداً عن انتماءاتهم الفكرية وغيرها، فالماضي ملك لأصحاب الأرض التاريخيين العرب الحاليين، فمن غيرهم يملك هذه الأرض؟

ظاهرة الإنكار ليست جديدة بالمطلق في الوطن العربي، فالتركيز على الأبطال الإسلاميين وتهميش الأبطال التاريخيين العرب يندرج تحت هذه الظاهرة وإن بشكل غير واعي، ومحاولة نسبة كل شيء جيد للقوميات الأخرى ونسيان أن الحكم والحضارة واللغة كلها عربية محضة واضح جداً، فالكثير من الأصوات تعلو بأسماء العلماء المسلمين وأسماء قادة الفتوحات غير العرب ومحاولة نسبة كل شيء جيد لغير العرب حتى وصلت في البعض محاولة إثبات أعجمية الكثير من العلماء العرب برغم صعوبة ذلك، ففي الحقيقة، وبغض النظر عن أصل هذا القائد أو العالم فهو نشأ في محيط عربي وتعلم بلغته العربية حتى لو كان فارسياً مثلاً أو أفغانياً، فمن ولد في بغداد وتربى تحت يد علمائها هو عربي ثقافياً بالضرورة وغالباً تعرب كما فعل محمد علي باشا حديثاً وابنه القائد والشاعر إبراهيم باشا رحمهما الله.

القومية العربية لم ولن تكون يوماً قومية عنصرية مبنية على تعصب الدم أو العرق، فالعروبة بالرغم من اكتساحها العرقي في المنطقة فهي عروبة ثقافية تعتمد على اللغة والثقافة والتاريخ المشترك والمستقبل الواحد لكل شعبنا العربي من الماء إلى الماء، وبالتالي يصبح إنكار العروبة آفة ضارة تأخذ قوتها من الخارج لا من الداخل أساساً، فتعزيز حركات التفكيك لا يمكن أن يأتي إلا في إطار معادي للعروبة وبالتالي للإنسان على هذه الأرض ودليل ذلك هو التجارب التاريخية الحديثة بل والمعاصرة الآن.

احتلال فلسطين من قبل البريطاني ومن ثم تقسيم الوطن العربي إلى دويلات غير طبيعية، ومن ثم ما حدث خلال المئة سنة الماضية من عمليات إفشال الوحدة، منذ مؤتمر سورية الأول وصولاً إلى جمال عبد الناصر، ومحاولات سورية والعراق الوحدوية، وصولاً إلى معاداة كل الأنظمة القومية اتفقنا معها أم اختلفنا، ما هو إلا دليل على خطورة القومية العربية على أعداء الأمة فما حدث خلال العقدين الماضيين هو تدمير آخر قلاع القوميين في ليبيا والعراق وسورية وصولاً إلى محاولات إنهاء حركات المقاومة على اختلافها من فلسطين إلى لبنان والعراق واليمن العزيز.

كل هذا يشير إلى بوصلة واحدة هي بوصلة الوحدة والترصيص، فرص الصفوف العربية هو الأساس وكل حركة أو فرد أو اتجاه فكري أو اجتماعي ينادي بعكس هذا التيار مشبوه وغالباً عميل لجهة ما خارجية أم داخلية، فالتوجه الوحدوي يحكم الوجود العربي الآن إلى جانب المقاومة، فحركات المقاومة المسلحة تحديداً تعمل في الصالح الوحدوي حتى لو كانت غير وحدوية وطنية ضيقة الآفق أو مبنية على أسس جهوية أو طائفية لأسباب معينة فهي تعمل لصالح وحدوي شاءت أم أبت وتقوى هذه الحركات بمقدار ما تقترب من الشارع العربي وتضعف بمقدار ما تبتعد عنه، فالوحدة كالصراط المستقيم يمكن الفرز من خلاله بكل وضوح كما المقاومة المسلحة.

أخيراً لا يمكننا القول بسهولة إعادة توحيد العرب تحت راية واحدة بعيداً عن الشكليات، ولكن أقلها توحيد الشارع العربي بشكل عملي مثلاً تحت ظل حركة شعبية عربية واحدة، ولكن السهل هو الإيمان بهذه الحركة ولو معنوياً وثقافياً وفكرياً فمن يقرأ التاريخ الحديث من القائد الخالد محمد علي باشا وصولاً إلى الحركات القومية الحديثة، من العهد إلى الفتاة، وليس أخيراً الراحل الخالد جمال عبد الناصر وسورية العروبة، يمكنه ببساطة الاستنتاج أن الوحدة العربية والقومية العربية "سياسياً وثقافياً" هي الأخطر على الأعداء وشط السلام للمواطن العربي ومستقبله هو وأولاده وأحفاده من بعده، فتصبح المعادلة تحرير وحدة نهضة أو تبعية تفكيك احتلال.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

العروبة هي الحل

كريمة الروبي

إن الوحدة العربية هى أملنا في تحرير فلسطين وفي عودة حقوق شعب فلسطين إلى شعب فلسطين.. جمال عبد الناصر

يرفع تيار الإسلام السياسي شعار (الإسلام هو الحل) كبديل عن فكرة الوحدة العربية، لذا كان الاستعمار دائماً يقف بوجه القومية العربية ويتحالف مع الإسلام السياسي، بل إنه صنعه صنعاً ليحارب به الفكر القومي العربي. وليس أدل على ذلك مما تشهده الأمة العربية من حروب وصراعات على أسس عرقية وطائفية لم تكن لها أن تحدث لولا تحالف الاستعمار مع الإسلام السياسي. وكانت الدول التي تتبنى الفكر القومي العربي هي ضحية هذه الحروب للقضاء على أي أمل في تحقيق الوحدة العربية. فبدأت بالعراق ثم ليبيا ثم آخر معاقل العروبة سورية التي تحولت اليوم من دولة تؤمن بالعروبة، وبضرورة تحرير فلسطين، ومساندة المقاومة، وتستضيف على أرضها فصائل المقاومة الفلسطينية، إلى دولة رافضة للعروبة يدعي حكامها أنهم يحكمون بالشريعة الإسلامية، ويقطعون الطريق أمام دعم المقاومة في مقابل السماح للعدو الصهيوني باحتلال الأراضي في سورية من دون أي اعتراض. فمَن هنا مع الحرية، ومن مع الاستعمار؟ الإسلام بالتأكيد مع الحرية، ولكن ليس إسلامهم الذي يهادنون به أعداء أمتهم، بل الإسلام الذي يؤمن بتوحيد كلمة العرب للتخلص من أعداء الأمة.

العروبة هل الحل، لذا تآمروا عليها حتى صارت غريبة وبات الحديث عن الوحدة العربية يقابل بالسخرية حين يتم طرحها كحل أمثل لاستعادة الأمة العربية لمكانتها التي تستحق بين الأمم. فتجد مواقع التواصل الاجتماعي والفضائيات التي تهاجم فكرة العروبة ويبحث كل قطر عن هوية خاصة به ينفي بها صلته بالعروبة، فهذا فرعوني وذاك فينيقي وهكذا، ولا شك لدي في أنها مواقع وقنوات وأقلام مأجورة في خدمة الاستعمار الذي يعمل على تفتيت الأمة التي إن توحدت لن يبقى له نفوذ فيها ولن يستطيع نهب ثرواتها. فالوحدة العربية ليست ترفاً أو خياراً بل ضرورة وحل وحيد لتتخطى هذه الأمة أزماتها وإلا سيكون مصيرها الفناء.

إن القومية العربية ليست مجرد حالة عاطفية أو فكرة يمكن تبنيها أو رفضها، بل واقع وحقيقة من ينكرها كمن يرى الشمس وينكر النهار، ولكن الأزمة في كيفية تحقيق الوحدة بين أقطار الأمة العربية في ظل وجود أنظمة تسعى للحفاظ على كراسيها من خلال التحالف مع أعداء الأمة، وبدلاً من سعيهم لإقامة وحدة تضمن لهم ولبلدانهم الرخاء، يعملون مع العدو لإفشال أي عمل عربي مشترك تطالب به الجماهير العربية. حتى تجربة الوحدة التي قامت بين مصر وسورية تم التآمر عليها من الجميع عرباً وأمريكان وصهاينة وسوفييت. فليس لأحد منهم مصلحة في قيام هذه الوحدة التي لو قدر لها البقاء فلن يستطيع أحد أن يفرض إرادته على دولتها التي قامت بمباركة شعبية منحت الأمل لجماهير الأمة العربية في الحلم ببناء دولة الوحدة التي تجمع جميع الأقطار، وإن كان التآمر عليها أصاب الجميع بحالة إحباط إلا أنه لم يفقدهم الأمل في إمكانية تكرار التجربة. تلك التجربة التي سعى أعداء الأمة لتجنب تكرارها بالتآمر على كل الأنظمة المؤمنة بالعروبة، وهو ما يؤكد أن العدو يدرك جيداً أن العروبة هي السبيل الوحيد لمواجهة مخططاته.

ومع وضوح هذه الحقيقة، نجد حملات لحذف كلمة "العربية" من اسم بعض الدول مثل مصر وسورية، وهي لا شك حملات ممنهجة مدفوعة الأجر لتفتيت الأمة خدمة لناهبيها، فلا قيمة للحديث عن الأمن القومي بعيداً عن العمل العربي المشترك، فحين سقطت بغداد أدرك الجميع أنها لن تكون العاصمة العربية الأخيرة، وبالفعل تلتها طرابلس ثم دمشق. حتى العالم خارج نطاق الأمة العربية يتعامل مع الشعب العربي كشعب واحد والأمة العربية كأمة واحدة، ولو سألت أي إنسان على هذا الكوكب ماذا لو توحد العرب؟ ستحصل على نفس الإجابة: لن تستطيع أية قوة على الأرض إخضاعهم أو نهبهم أو احتلالهم. هل يوجد شك في ذلك؟ بالطبع لا.. إذن فالعروبة هي الحل، والأزمة ليست في فكرة العروبة بل في كيفية تحقيقها وهو ما يجب أن نسعى إليه بدلاً من السعي للتبرؤ منها تحت شعارات تبدو وطنية ولكنها في الحقيقة تعمل ضد الأوطان. فمن أرادوا لسورية أن تتبرأ من عروبتها أوقعوها في براثن الجماعات المتطرفة التي تعمل لخدمة المستعمر فتعرضت لاحتلال الأرض والاقتتال الأهلي. وبنظرة سريعة على واقع الأمة العربية في ظل انتشار المد القومي في فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، وواقع الأمة بعد انهيار النظم القومية وانحسار المد القومي، سيفهم كل معادٍ للعروبة أنه ليس إلا أداة في يد المستعمر.

من كان حقاً يريد لهذه الأمة أن تنهض، فعليه بالسعي لإقامة وحدة عربية تعبر عن آمال الشعب العربي في التخلص من واقعه البائس وتجنب مصير أكثر بؤساً.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

سومر وأكاد وكلدان: تسميات جغرافية أم قومية؟

إبراهيم علوش

أكاد:

من المؤكد أن أكاد اسم مدينة اشتهرت كعاصمة للإمبراطورية الأكادية عندما هيمنت على منطقة ما بين النهرين في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. أما الموقع الدقيق لتلك المدينة فغير معروف حتى الآن، لكنّ التكهنات تتركز على وسط العراق الحالي حول منطقة تبعد عن بغداد الحالية نحو 30 كيلومتراً، وهناك تكهنات أخرى أقل ترجيحاً تضعها قرب الموصل في الشمال.

يلفظ اسمها "أكاد"، بالكاف، كما يلفظ "أغاد"، بالغين المشددة، agade، كما يلفظ أهل البادية حرف القاف، كما في great أو goal بالإنكليزية.

ذكرت أكاد باسم أغاد مثلاً في بقايا الأوامر الملكية للحاكم مانيشتوشو، ابن سرجون الأكادي، وأبي نارام سين. تتحدث تلك الأوامر عن استخراج الحجر الأسود من الجبال وشحنها عبر البحر السفلي إلى رصيف ميناء "أغاد"، ما يدل بأنها كانت على شاطئ دجلة، كما تقول بعض المصادر.

بقية التمثال الذي اكتشف عام 1974 في قرية باستكي، في محافظة دهوك شمالي العراق، وجد عليه نقش بالأكادية يقول إن التمثال كان يقف على باب قصر "الملك نارام سين، الجبار، ملك أغاد". ولا يعني اكتشاف بقية التمثال شمالي العراق أن العاصمة كانت هناك بالضرورة، وخصوصاً أن وزنه يبلغ 150 كيلوغراماً فقط، وكان في المتحف الوطني العراقي حين سُرق مع الغزو عام 2003، ثم استعيد لاحقاً.

بناء على النصوص التي اكتشفت في "ماري"، حوالي 120 كيلومتراً جنوب شرق دير الزور، فإن الملك العموري شمسي حدد، والذي أسس دولة عبر العراق وسورية الكبرى وآسيا الصغرى في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ذهب في سنوات حكمه الأخيرة إلى مدينتي "أكاد" (بالكاف)، و"ربي قم" Rapiqum، وهي إلى الشمال، وترجمت "ربي قوي".

وفي مقدمة قوانين حمورابي، الملك البابلي الذي استولى على جزءٍ كبيرٍ من مملكة شمسي حدد بعد وفاته، نجد التعبير التالي: "وهو الذي قام بتثبيت عشتار في معبد أولماس داخل مدينة أكادي" (بالكاف).

ذُكرت "أكاد" كـ accad في الإصحاح العاشر من سفر التكوين في التوراة كإحدى المدن الواقعة تحت حكم النمرود، مع بابل وأورُك وكَلنة، في أرض شنعار، أي في سومر. ومن المؤكد أن بابل وأورُك وكَلنة أسماء مدن.

لكنّ التسمية لم تستقر هكذا عبر العصور، وفي عهد قورش الكبير، الملك الفارسي الذي غزا العراق في منتصف الألف الأول قبل الميلاد، يرد نصٌ منسوبٌ إليه قال فيه: "جميعهم، ملوك العالم أجمع، أحضروا جزيتهم الثقيلة وقبلوا قدميّ في بابل... حتى مدينة آشور، ومدينة سوسة، ومدينة أغاد، إلخ... المدن المقدسة عبر نهر دجلة".

أكاد مدينة إذاً، وكذلك آشور، وبابل، لكنها اشتهرت بفضل الدولة التي أصبحت قاعدة أو عاصمة لها، وبفضل اللغة العربية القديمة، الأكادية، والتي انتشرت في المشرق العربي وصولاً إلى مصر غرباً، وإلى البحرين جنوباً. وهي اللغة التي تفرعت إلى لهجتين: بابلية وآشورية، كما سبقت الإشارة في ورقة أخرى. وهي من عائلة اللهجات "السامية" الشرقية، والإيبلاوية، من إيبلا، منها، تمييزاً لها عن "السامية" الغربية، مثل الآرامية، والتي حلت محل الأكادية في المحصلة.

سومر:

لا توجد مدينة اسمها سومر، لكنها اسم منطقة تصف بالأغلب جنوب العراق، في حين أن استخدام اسم أكاد للدلالة على منطقة، لا مدينة، يعود إلى شمال العراق، وخصوصاً شماله الغربي.

سبق السومريون الأكاديين على مسرح ما بين النهرين، كما سبقت الحضارة العبيدية السومريين في جنوب العراق، وهي حضارة ذات صلات بوسط العراق (سامراء) وحضارة تل حلف في سورية، وبصلات تجارية واسعة مع شرقي الجزيرة العربية وجنوبيها.

بدأت بعض مستوطنات العبيديين الزراعية تتحول إلى بلدات تتمحور حول مبانٍ أثرية، ومنها أريدو وأورُك، أو الوركاء بالعربية، والتي أصبحت قاعدة للسومريين ثم البابليين فيما بعد، وفيها اخترعت الكتابة، وملحمة غلغامش.

وهناك مدينة أور طبعاً، التي كانت مستوطنة زراعية في عهد العبيديين، وتحولت إلى عاصمة للسومريين فيما بعد. وغيرها كثير من المدن، ومنها مدينة كيش، وهي تعد أول مدينة سومرية، نشأت حوالي 3100 قبل الميلاد، ويرى البعض أنها تأسست

في 5000 قبل الميلاد. والعبرة من الكلام صعوبة فصل السومريين عمن سبقهم في المنطقة، وصعوبة فصلهم عمن لحقهم، ولا سيما الأكاديون.

يقول المؤرخون إن الحضارة العبيدية، وخصوصاً في الخليج العربي وعُمان، قضي عليها بفعل التصحر والجفاف الشديد، حوالي 3800 قبل الميلاد.

برز نجم السومريين بعدها بمئات الأعوام جنوبي العراق، مع أن المصادر تضع نزولهم هناك قبل ذلك بكثير. لكن الحضارة، بالصيغة التي تحولت بعدها إلى حضارة إنسانية، تأسست لبنتها الأولى في منطقة سومر فعلياً.

لذلك، ثمة جدل كبير حول أصولهم، إذ يحرص بعض المستشرقين على الذهاب بعيداً في التأكيد على أنهم غرباء عن منطقتنا عرقياً وثقافياً ولغوياً، ويذهب البعض إلى أنهم هبطوا على الأرض من كوكب بعيد بمركبات فضائية، استناداً إلى أساطير السومريين ذاتها. وجوهر الموضوع طبعاً هو إنكار عروبة الحضارة عموماً، من خلال إنكار عروبة السومريين.

ثمة ردود عربية طبعاً، منها إسهامات المؤرخ السوري الفذ د. محمد بهجت القبيسي، واضع كتاب "فقه اللهجات العربيات"، وهو من أرشدني شخصياً قبل سنوات إلى أن السومريين لا يختلفون عن الأكاديين حضارياً وثقافياً وقومياً.

تثبت المصادر أيضاً أن ما يعد "لغة" خاصة بالسومريين، ليس سوى لغة نخبوية استمرت كلغة طقوس وآداب وعلوم لدى البابليين والآشوريين حتى القرن الأول بعد الميلاد، بعد ألفيات من انقراضها كلهجةٍ محكية.

واكتشفتُ مؤخراً، خلال إعداد لهذه المادة، أن باحثاً ليبياً مجتهداً هو د. عبد المنعم محجوب بذل سنواتٍ طوال في إثبات سومرية اللغة العربية، ولم أقل عروبة اللهجة السومرية، إذ إنه وضع كتاباً مفصلياً على هذا الصعيد، هو "ما قبل اللغة... الجذور السومرية للغة العربية واللغات الآفروآسيوية" وجد فيه أن الصلات المشتركة بين الأكادية والعربية والمصرية القديمة وغيرها من اللهجات المحكية منذ بدء التاريخ عبر الوطن العربي الكبير أساسها سومري التركيب. ويمكن تحميل الكتاب مجاناً من طريق هذا الرابط:

https://kolalkotob.com/book5024.html

في جميع الأحوال، سبقت الإشارة إلى مدينة كيش، والتي تحولت إلى قاعدة رئيسية للسومريين، وكانت قاعدة انطلاقهم، وفيها حكمت أول سلالة سومرية. ويورد النص السومري 23 ملكاً لها نصف أسمائهم "سامية" (جزيرية، أي متصلة بالجزيرة العربية).

وضعت في سومر أول كتابة مسمارية، حوالي 3000-3200 قبل الميلاد، وهذا يختلف عن وضع أول أبجدية طبعاً. وحدث أن النقش المسماري الذي وضع على ألواحٍ طينية في سومر كتبت فيه لغات أقوامٍ شتى، منها الحورية في القوقاز، واللوبية في الأناضول، وغيرها.

ربما ساهم هذا الأمر في ربط الكتابة السومرية بلغات ليست "سامية" أو عربية الجذور، وأتاح الفرصة للمستشرقين كي يزعموا أن "اللغة" السومرية لا تتصل قط بأي لغة نعرفها في الأرض، مع العلم أن معظم ألواح الكتابة السومرية جاءت باللهجة الأكادية العربية القديمة، وفي الصيغة الأكادية للكتابة السومرية كتبت اللغة الحثيثة الأناضولية أيضاً بالمناسبة.
وتسمى اللغات التي لا يمكن ربطها بأي عائلة من اللغات واللهجات المعروفة، مثل اللاتينية أو السلافية أو عائلة اللغات الآفروآسيوية مثلاً، بـ Language Isolate، أو عازل لغوي.

يزيد الأمر تعقيداً أن السومريين سموا أنفسهم "أصحاب الرؤوس السوداء"، وأن تماثيلهم تظهر هذا الأمر أحياناً. كذلك سمى الأكاديون السومريين "أصحاب الرؤوس السوداء"، ويوحي هذا بفارقٍ عرقيٍ عن سائر سكان المنطقة. لكنه فارقٌ وهميٌ في الحقيقة، إذ إن السومريين لم يكونوا سوداً كالأفارقة جنوب الصحراء الكبرى، بل كانوا مختلطين عرقياً.

وثمة مراجع شتى تشير إلى نزوحٍ جرى من وادي النيل إلى جنوب العراق، وهو الرابط الذي يؤكد عليه د. عبد المنعم محجوب بشأن العلاقة بين الجناح الآسيوي والإفريقي للوطن العربي، كما أنه الرابط الذي أكدتُ عليه أيضاً في ورقة أخرى عن أصل الأبجدية بين وادي النيل وبلاد الشام (أنظر مجلة طلقة تنوير، العدد 84، تحت عنوان "الآراميون، الأنباط، المصريون القدامى، وأصل الخط العربي").

يتميز وادي النيل عن بقية الوطن العربي سكانياً بأنه عرقياً حصيلة مزيج مشرقي مغاربي إفريقي، وبناءً عليه تزداد درجة إسمرار البشرة كلما ذهبنا جنوباً في السودان، أو القرن الإفريقي، نتيجة الاختلاط العربي الزنجي. وفي دارفور مثلاً يصعب تمييز العرب عن غير العرب عرقياً. وعلى الرغم من ذلك، يحتدم الصراع فيما بينهم عرقياً، والخلاف في الحقيقة اقتصادي-اجتماعي، إذ إن العرب هناك أقرب للبداوة، فيما الزنوج مزارعون.

بناءً عليه، أدت موجة نزوح من وادي النيل إلى جنوب العراق إلى جعل السومريين أكثر إسمراراً من سكان محيطهم الجغرافي المباشر. ويصعب أن نفصل بين كلمة "سومر"، كما ترجمها المستشرقون، وكلمة "سُمُر"، šumeru أو سُمرُ، بالتعبير الأكادي، حرفياً. وهذا اجتهادي الخاص، لكن المراجع تجمع على أن اللفظ أطلقه الأكاديون على السومريين، وهي كلمة يمكن أن يفهمها أي عربي اليوم، فكيف حدث ذلك لولا صلة الأكادية بالعربية؟ وما نزال نستخدمها اليوم في العامية، كما في "أسمر"، و"أبو سمرا"، بالمعنى ذاته.

وأين الأثر الزنجي في العراق اليوم؟ إنه قليل الحدوث نسبياً كما هو في بقية منطقة الهلال الخصيب، بل إنه أكثر شيوعاً في الجزيرة العربية ووادي النيل، وهذا طبيعي، لأن العروبة ليست عرقاً، ولا تستند إلى أساسٍ عرقي، بل هي لغةً وثقافةٌ وجغرافيا وتاريخ تمازجت فيها الأعراق والإثنيات، وتغلب عليها عرقياً درجات مختلفة من الإسمرار.

الداعي لقول هذا الكلام أن هناك كتابات أجنبية تحاول نسبة حضارة السومريين إلى زنوج إفريقيا، تماماً كحضارة الفراعنة التي ينسبونها إليهم، الأمر الذي دفع بعض "التقدميين" في الغرب إلى فتح معركة سياسية كبيرة مع عالم الآثار المصري زاهي حواس، تحت ستار ترسيخ مكانة غير الأوروبيين في التاريخ، و"محاربة المركزية الأوروبية"، ولكن على حساب الأمة العربية دوماً. ويذكر أن عالم الآثار زاهي حواس الذي يتصدى لهم يعاني من قصورٍ في إدراك الصلة بين المصريين القدامى ومحيطهم العربي القديم، موحياً أن الفراعنة قدموا من السماء أيضاً!

كلدان:

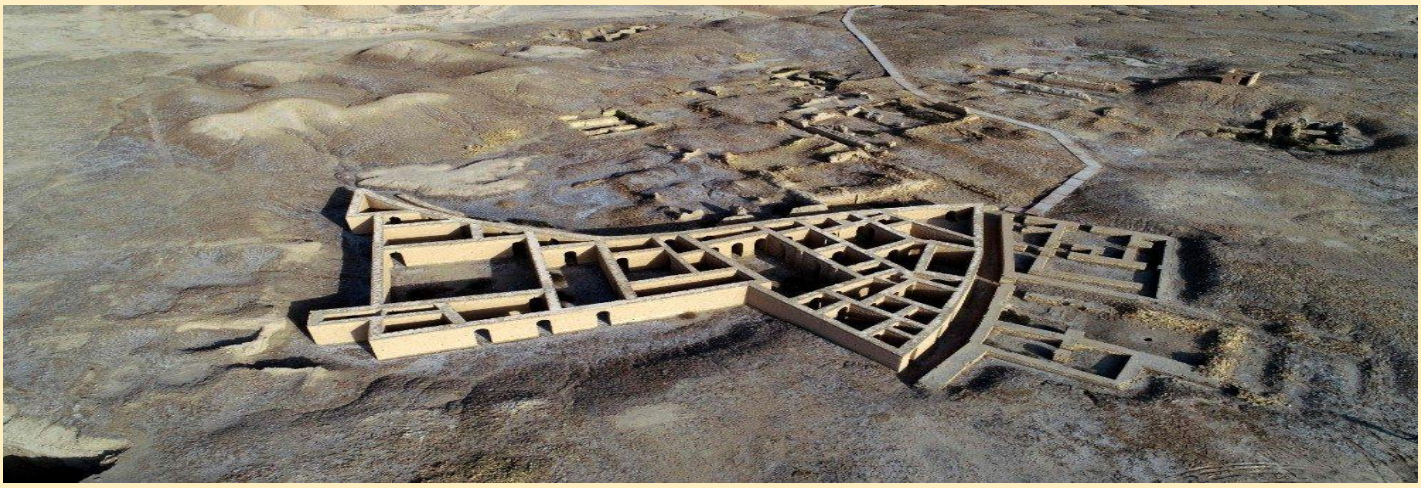

كلدان هي منطقة تقع جنوب غربي بلاد ما بين النهرين استمرت بضعة قرونٍ ما بين القرن العاشر والسادس قبل الميلاد، قبل اندماجها تماماً بالبابليين. لكن الفرق بين الكلدان والبابليين أنهم من أصول "سامية" غربية، لا شرقية كالبابليين والآشوريين.

خلال فترة ضعف انتابت الدولة البابلية، بدأت قبائل وجماعات "سامية" غربية بالتدفق من بلاد الشام بين القرنين الحادي عشر والتاسع قبل الميلاد، منهم الآراميون، ومنهم الـ Suteans الذين لم أستطع إيجاد مقابل بالعربية لاسمهم (سوتانيون، يقول أحد المراجع)، سوى أنهم قبائل رعاة محاربة، ربما عدت على "الأحلامو"، وهناك من ينسبهم إلى العموريين، ومن ينسبهم إلى العروبة الصريحة، ومن يعدهم فرعاً "سامياً" مستقلاً.

عاش الـSuteans بين أرض كنعان وبلاد الشام وامتدوا نحو منطقة ما بين النهرين، ولا سيما ما يعرف اليوم بتل الحريري في سورية جنوبي ماري. لكن المؤكد أنهم من مكونات العروبة القديمة، وقد ذكروا في 8 من رسائل تل العمارنة البالغ عددها 382.

بعد نحو قرن من انسياح الآراميين والـ Suteans باتجاه منطقة ما بين النهرين، دخلت جماعات الكلدو، التي أصبحت لاحقاً تعرف باسم الكلدانيين. ولم يؤثر كل أولئك على الدولة الآشورية القوية شمال ما بين النهرين التي كانت تصدهم، فانزاحوا جنوباً.

أسس الكلدانيون دولة شبه مستقلة في البداية في منطقة شبه بيضاوية تعلو البصرة حالياً، إضافة إلى بعض الأراضي إلى يسارها. وشكلوا عدة إمارات جنوبي العراق، حتى أصبحوا لاعباً رئيسياً مع الزمن، وحتى أصبح كل جنوب العراق يُعرف باسمهم.

كانت أقوى القبائل الكلدانية "بيت يقين"، ومنها انحدر معظم ملوكهم. وصار الخليج العربي يُعرف باسم "بحر بيت يقين"، وأحياناً باسم "بحر أرض كلدان". وكانت العاصمة "دور يقين"، ومنها انطلق أميرها مردوخ إيبلا الديني الثاني لينتزع عرش بابل من الآشوريين الذين خاض معهم حروباً على مدى أكثر من عقدين متحالفاً مع العيلاميين في عربستان الحالية غربي إيران، ومع الآراميين في بلاد الشام، ومع "الإسرائيليين".

قبل ذلك كله خضع الكلدانيون لبابل وآشور، وكان اللاعبون الرئيسيون جنوبي العراق، إضافةً إليهما، العيلاميون في عربستان، والآراميون الذين سبقوا الكلدان إلى جنوب العراق بقرنٍ على الأقل.

بحسب التوراة في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين، فإن النبي إبراهيم ولد في "أور الكلدانيين"، ومنها انطلق إلى أرض كنعان، وإذا صح هذا الكلام، فإنه يعني أن النبي إبراهيم كلداني.

على الرغم من كون الكلدان يتحدثون لهجة "سامية" غربية، فإنهم مختلفون عن الآراميين، وقد حرص الملك الآشوري سنحاريب في نقوشه على التمييز بين الجماعتين.

في عصر المملكة الآشورية الجديدة في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، أدخل الملك تِغلات بلاصر الثالث لهجة آرامية شرقية، متأثرة بشدة بالأكادية، كلغةٍ رسميةٍ لإمبراطوريته. وحلت تلك اللهجة تدريجياً محل التنويعات البابلية والآشورية من اللغة الأكادية، كما أصبحت لسان الكلدانيين، وبدأت الآرامية العراقية تنتشر في بلاد الشام ذاتها.

مع مجيء الاحتلال الفارسي عام 539 قبل الميلاد، كان تعبيرا كلدان وأرض كلدان قد فقدا أي معنى جغرافي أو إثني، لأن الكلدان جرى امتصاصهم ثقافياً ولغوياً ودينياً بالكامل في العراق، وباتت كلمة كلدان تعني طبقة اجتماعية تشتغل بالفلك والتنجيم والسحر جنوبي منطقة ما بين النهرين.

لم يبق كلدان في ظل الحكم الفارسي، ولم تسمَ أي منطقة باسمهم كمحافظة أو إمارة تابعة، على الرغم من بقاء تعبيري "بابل" و"آشور" طويلاً بعدهم.

يرتبط الكلدان اليوم بالآشوريين في العراق، كجماعة تعتنق المسيحية وتتحدث بلهجة آرامية شرقية، ويعبر بعض ممثليها في الغرب عن نزعة انفصالية.

خلاصة:

كثيراً ما جرى تسمية أرض باسم القوم الذين سكنوها أو سادوا عليها، مثل "أرض كنعان" في فلسطين الحالية، والتي أصبحت فلسطين بعدما دمغتها قبائل الفلسطو بدمغتها، أو "أرض كلدان" يوماً ما جنوبي العراق.

لكن العكس جرى أيضاً، من خلال نسبة قوم أو أشخاص بعينهم إلى المنطقة الجغرافية التي تحدروا منها، أو إلى أبرز ما في تلك المنطقة، "أكاد" أو "آشور" أو "بابل" التي كانت مدينةً تقع مكان مدينة الحلة في العراق حالياً، في محافظة بابل.

يقول الباحث والمؤرخ فارس سعادة إن الجغرافيا كانت الأساس، وبالتالي إن السيطرة على الجغرافيا كانت تعطي المسميات، واستمر هذا حتى الفترات الإسلامية، إذ إن الكثير من العرب الذين هاجروا مع الفتوحات إلى خراسان وفارس، وصولاً إلى جورجيا وأرمينيا والأندلس، لقبوا أنفسهم باسماء المدن التي ولدوا أو سكنوا فيها، مثل القرطبي والأشبيلي والقيرواني والفاسي والبخاري والطوسي إلخ...

وخلال الهجمة الأمريكية الإسلاموية بعد "الربيع العربي" رأينا الدواعش وأضرابهم يحاولون استعادة تلك الحالة من خلال نسبة أنفسهم إلى المدن التي ولدوا أو سكنوا فيها، مثل الزرقاوي والبغدادي إلخ...

قبل حلول الفرس والرومان واليونان في الوطن العربي كانت الانتساب إلى الجغرافيا المحلية هو الأساس، لأن المنطقة واحدة حضارياً، مع وجود اختلافات بين الناس بحسب البيئة والمصالح الاقتصادية، مثل الصراع بين البدو والفلاحين، أو بين النخب التجارية والعسكرية والدينية لمدنٍ بعينها كانت تتنافس مع نخب مدنٍ أخرى من القماشة ذاتها ثقافياً.

أما بعد حلول الاحتلالات الأجنبية، وخصوصاً تلك التي حاولت تغيير هوية المنطقة، فإن التمايز على أساس قومي بات وسيلة للدفاع عن الذات، كما يقول فارس سعادة، ومن المؤكد أن الإشارات الدالة على بابل أو آشور أو سومر أو كلدان هي إشارات مكانية جغرافية لا علاقة لها بالقومية أو الإثنية من قريبٍ أو بعيد، وبالتالي من المؤكد أن التسميات ذات الدلالة القومية بدأت تفرز نفسها على هذا الأساس خلال العصر الحديدي، أي في الألف الأول قبل الميلاد فقط.

أضيف في هذا السياق أن انتشار الآرامية المطعمة بالأكادية في القرن الثامن قبل الميلاد، وتهميشها للهجات "السامية" السائدة الأخرى، جاء سهلاً وسلساً لأنها من الأرومة ذاتها، ولم تعده الجماعات الأخرى مصادرةً لهويتها، تماماً كما سادت العربية محل الآرامية فيما بعد.

بعد الحكم العربي الإسلامي، عاد العرب إلى الانتساب إلى المدن التي ولدوا أو عاشوا فيها، لأنها تنتمي إلى فضاء ثقافي واحد، ولم يعودوا إلى طرح هويتهم القومية، بالصيغة المعاصرة للهوية القومية، إلا بعد بروز التحدي الشعوبي وبدء سيطرة الأعاجم على الخلافة، كما أوضحت في مادة "هل القومية فكرة أوروبية مستوردة؟"، في مجلة طلقة تنوير، العدد 88، عدد 1 تموز 2023.

على سبيل المثال، سبقت الإشارة إلى أن الكلدان أتوا من بلاد الشام، وأن لهجتهم "سامية" غربية كالآرامية، وليست متطابقة معها. لكن ثمة خلاف بشأن أصول الكلدان، إذ إن البعض ينسبهم إلى الجزيرة العربية.

أقتطف مباشرة من أحد المراجع: "يرى البعض الآخر من الباحثين مثل فيليب دوغورتي بأن الكلدان هم أقوام خرجت من شبه الجزيرة العربية، وقد اندفعوا من هذه المنطقة ودخلوا العراق خلال الألف الأول قبل الميلاد متخذين طريق ساحل البحر العربي ثم الخليج العربي الذي أصبح مقترناً باسمهم، فسمي بـ (البحر الكلدي). وينقل الباحث جواد علي عن سترابو إن مدينة الجرها التي تقع في القطيف في ساحل الخليج العربي في السعودية هي موطن الكلدان الأصلي وكانت تتمتع بعلاقات جيدة مع بلاد "بابل".

وليست تلك مشكلة كبيرة بأية حال، لأن الآراميين ذاتهم أتوا من الجزيرة العربية، كما أثبتت في ورقة أخرى (انظر طلقة تنوير 84). المهم أننا نتحدث عن فضاء ثقافي وحضاري واحد هو الفضاء العربي الذي تنتمي المدن والجغرافيا والناس إليه.

كلمات ظُفارية مقارنة بأخرى بربرية

سعيد بن عبد الله الداردي

وصلنا إلى القسم الرابع والأخير من مشروع المقارنات المعجمية الذي خصَّصته لمجلة {طلقة تنوير} الرقمية.

وهنا نصل إلى لهجاتنا المَحْكِيَّة، وهي عشر لهجات متوزّعة بين سلطنة عُمان والجمهورية اليمنية، ولقد أطلقتُ عليها اسمَ اللهجات الظُفارية، بعض هذي المحكيَّات ينتمي إلى عربية شمال الجزيرة (لغة القرآن) وبعضها الآخر إلى عربية جنوب الجزيرة العربية؛ وهي متوزعة في مناطق عِدَّة؛ في ظُفار (الإقليم الجنوبي لسلطنة عُمان)؛ وفي المَهْرة (محافظة في الجمهورية اليمنية)، وفي سقطرى (جزيرة تابعة للجمهورية اليمنية)، بعض هذه اللهجات مشترك بين الدولتين،

وبعضها الآخر يقع داخل حدود إحدى هاتين الدولتين، ولقد اسميتها اللهجات الظُفارية للأسباب التالية:

* معظم هذه اللهجات تقع في إقليم ظُفار بسلطنة عُمان.

* منطقة ظُفار أكبرها مساحةً مقارنة ببقية المناطق الجغرافية هذه اللهجات.

* معظم السُّكَان ـ أصحاب هذه اللهجات ـ متجانسون عشائرياً.

* عددها عشر لهجات هي:

1ـ الدارجة الظُفارية (هي اللهجة العربية العاميّة للظفاريين، وهي تنتمي إلى العربية الشمالية) ــ موطنها سلطنة عُمان؛ وهي لهجة سُكّان الساحل من مدينة طاقة شرقاً إلى مدينة عوقد غرباً.

2ـ الكثيرية (هي لهجة بدويّة تنتمي إلى العربية الشمالية) ــ موطنها سلطنة عُمان.

3ـ لهجة شمال شرق ظُفار (هي لهجة بدويّة تنتمي إلى العربية الشمالية) ــ موطنها سلطنة عُمان.

4ـ الشَّحْرية (هي لهجة صعبة الفهم لغير أصحابها تنتمي إلى العربية الجَنوبية) ــ موطنها سلطنة عُمان؛ ومرتعها جبال ظُفار، ولهذا تُدعى أيضاً باسم "الجَبّالية".

5ـ المَهْرية (هي لهجة صعبة الفهم لغير أصحابها تنتمي إلى العربية الجَنوبية) ــ موطنها سلطنة عُمان والجمهورية اليمنية.

6ـ السَّقْطرية (هي لهجة صعبة الفهم لغير أصحابها تنتمي إلى العربية الجَنوبية) ــ موطنها الجمهورية اليمنية؛ وتوجد في جزيرة سقطرى.

7ـ البَطْحَرية (هي لهجة صعبة الفهم لغير أصحابها تنتمي إلى العربية الجَنوبية) ــ موطنها سلطنة عُمان.

8ـ الحَرْسُوسية (هي لهجة صعبة الفهم لغير أصحابها تنتمي إلى العربية الجَنوبية) ــ موطنها سلطنة عُمان.

9ـ الحَلّانية (هي لهجة صعبة الفهم لغير أصحابها تنتمي إلى العربية الجَنوبية) ــ موطنها سلطنة عُمان؛ وتوجد في جُزُر الحَلّانيّات.

10ـ الهُبْيُوتية (هي لهجة صعبة الفهم لغير أصحابها تنتمي إلى العربية الجَنوبية) ــ موطنها سلطنة عُمان والجمهورية اليمنية.

وهنا ـ في هذا الجزء الأخير من مشروع المكافئات المعجمية ـ اخترت لكم خمس لهجات ظُفارية هي الشَّحْرية والمَهْرية والسّقْطرية والحَرْسُوسية والعامِّية الظفارية، مكتفياً بها عن البقية.

والآن فلنبدأ بكلمات بربرية مقارنة بأخرى من العامية الظُفارية:

في البربرية أگعرور: الحدبة. وفي العامية الظُفارية الجَعْرُورة: وصف يُطلق على ما هو مُكَوَّر. وتُجمع "الجَعْرُورة" على جعارير.

في البربرية أباراخ: الرخيص الثمن. وفي العامية الظُفارية. البَّرخ: الرخيص الثمن، العديم القيمة.

في البربرية أباحلاس: المتملق. وفي العامية الظُفارية المتبلحس: المتملق.

في البربرية إفدّخ: شَجَّ الرأسَ. وفي العامية الظُفارية فْطَخ: شَجَّ الرأسَ.

في البربرية تاجرا: القدح يُشرب فيه. وفي العامية الظُفارية الجَرْيَة: طاسة يُحلب ويشرب فيها.

في البربرية أحناشي: الخلخال. وفي العامية الظُفارية الحنيشة: العِقْد. والمشترك بين الخلخال والعِقْد أنهما من الحلي النسائية، وأنهما دائريان يحيطان بجزء من جسد المرأة، وأنهما ـ في الغالب ـ يُصنعان من الذهب أو الفضة.

وإليكم كلمات بربرية مقارنة بأخرى شَحرية:

في البربرية تِيكَبِيرْتْ: تزاور العُشّاق من الرجال والنساء ليلاً (لهجة تماشق) ـ وفي الشَّحرية إكبُار: العُشّاق.

في البربرية تونت: القِسْم، النَّصيب. وفي الشَّحرية ين: القِسْم، الحصَّة.

في البربرية أحشّاو، أحشتاو: ما تفتت من الحصى وصغر. وفي الشَّحرية حشي: التراب.

في البربرية إجّي: ما أشرف وارتفع. وفي الشَّحرية جا: أعلى قمَّة الوادي.

في البربرية أنفا: التلُّ، المُرْتَفع. وفي الشَّحرية نُف: الشاهق الجبلي المُرْتَفع.

في البربرية تامگسوت: اللحم القديد المجفّف. وفي الشَّحرية مَقُصوت: قِطعة اللحم الصغيرة، والجمع: مَقُص.

وإليكم كلمات بربرية مقارنة بأخرى من اللهجة المَهْريّة:

في البربرية إغوف: اختنقَ. وفي المَهْرية غفت، غفيت: الاختناق.

في البربرية أجاج: الرَّعد. وفي المَهْرية جاجات: الرَّعد. والتاء في «جاجت» أداة تأنيث زائدة؛ لأن الرعد اسم مؤنث في اللهجة المهرية.

في البربرية إگور: ذهبَ. وفي المَهْرية قَرُوْرْ: ذهبَ.

في البربرية أمثنا: المطر. وفي المَهْرية ثن: رائحة المطر.

في البربرية أخرّي: الخيط من صوف. وفي المَهْرية خوري: صنف من الحِبال.

وإليكم كلمات بربرية مقارنة بأخرى من اللهجة الحَرْسُوسية:

في البربرية إوركت: سارَ على رجليه. وفي الحَرْسُوسية ركوت: مَشَى خلف شخص ما.

في البربرية إسكي: السيف. وفي الحَرْسُوسية إشْكِيوْ: السيف.

في البربرية أكرض: الحَلْق. قَرْد: الحَلْق.

في البربرية أورار: الإنشاد والتغني. وفي الحَرْسُوسية إروْ: أنشدَ.

في البربرية أمالاس: المَطَر المُنْهَمِر. وفي الحَرْسُوسية مِلْسي: المطر.

في البربرية إفر: جناح الطائر. وفي الحَرْسُوسية فرفر: جناح الطائر.

وإليكم كلمات بربرية مقارنة بأخرى من اللهجة السقطرية:

في البربرية تاتّن: النعاج. وفي السقطرية تاتَن، تاتِن: النعاج.

في البربرية أيور: القمر. وفي السقطرية إِيْرِي: القمر.

في البربرية تاسمّتلاوت: التَّرْتَرَة. وفي السقطرية مَتل: الكلام.

في البربرية تاساريت: السِّكِّين. وفي السقطرية صاره: السِّكِّين (والهاء في آخر الكلمة السقطرية هي أداة التأنيث، تقابل التاء في آخر الكلمة البربرية)

في البربرية تامطّوت: المرأة. وفي السقطرية مَتِطا: المرأة الشابة البِكْر.

في البربرية إمّوشتا: فَتَرَ جسمه، لانَ، ضعفَ. وفي السقطرية مِشْ: فَتَرَ جسمه (لهجة الشرق).

في البربرية أكسوم: اللحم. وفي السقطرية قاصَمْ: طعام الغداء (لهجة جزيرة عبد الكوري).

في البربرية يدر: مبلل. وفي السقطرية تِيْرِيْ: اِبتلَّ (لهجة جزيرة عبد الكوري).

المراجع والمصادر:

* الجذور اللغوية السقطرية المشتركة مع العربية من خلال معجم لسان العرب لابن منظور ـ أطروحة مخطوطة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في تخصص: اللغويات ـ إعداد الطالب أحمد الرميلي.

* الجملة بين العربية والسقطرية. دراسة نحوية ـ أحمد الرميلي.

* العربية القديمة ولهجاتها ـ عادل محاد مسعود مريخ.

* المعجم العربي الأمازيغي ـ محمد شفيق.

* لسان ظفار الحميري ـ محمد سالم المعشني.

* مفردات العربية الدارجة في ظفار ـ حامد باوزير.

* معجم لسان ظفار (جبّالي/عربي) ـ أحمد بن محاد المعشني.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

من التراث القومي: نحو منظورات وحدوية جديدة

ياسين الحافظ (1978)

(كتبت هذه الدراسة خلال تموز 1974، وأدخل عليها المؤلف بعض التنقيحات والزيادة عام 1978)

في مناخ الاستنقاع الإقليمي الراهن، الحديث عن الوحدة العربية قد يبدو أشبه بمفارقة. وبالفعل، فمع غلبة الريح الإقليمية على الريح الوحدوية، نرى الشماتة الممزوجة باللؤم على وجوه الإقليميين وهم يحاججون: ألم نقل لكم إن الوحدة العربية طوباوية، موضة، نوبة، وتنتهي!! لقد هزمت أسطورة الوحدة العربية، ويبدو أنها الهزيمة النهائية! كونوا واقعيين. اعترفوا بهذه الحقيقة، واعملوا على أساسها!! بل، إلى أكثر من ذلك تذهب الهزيمة: ألا نرى طوابير قومية عربية، لا أفراداً فحسب، بل أحزاباً ومنظمات، تهجر مطلب الوحدة العربية وتنزلق إلى مواقع إقليمية مكشوفة إلى هذ الحد أو ذاك؟!

الوحدوي الذي يملك نظرة واقعية ثورية، لا يسعه إنكار الهزيمة أولاً، ولا يسعه إلا أن يأخذها في الاعتبار ثانياً. فما لم نر الواقع لن نستطيع مغالبته أو قهره. لذا فالرومانسية الوحدوية يمكن أن تنتهي (بل كثيراً ما انتهت)، في ارتطام مرير بالواقع، إلى إقليمية صريحة أو ضمنية.

أضف إلى ذلك، أننا لسنا فقط إزاء هزيمة للوحدة العربية، بل إزاء هزيمة أشمل، هزيمة حركة الثورة العربية بوجه عام. وبالتالي فهي هزيمة جزء من كل، وليست هزيمة الجزء وانتصار الكل. وهذا يعني أنه عندما تنفض الثورة العربية غبار الهزيمة، ستنفض الحركة الوحدوية، هي أيضاً، غبار الهزيمة، وستستعيد مواقعها وتتقدم. هذه الحقيقة تلقي أسطع ضوء على حقيقة المشروع الوحدوي.

ثم، من قال إن حركة الوحدة ينبغي أن تنجح في ثلاثة عقود أو أربعة؟ لقد ناضل الشعب الألماني في سبيل وحدته، وعرقلاتها أصغر بكثير جداً من عرقلات الوحدة العربية، مدة تنوف على القرن. ما كان أسهل صنع التاريخ لو أنه يسير بالقدر الذي نريد من الملاسة.

وأخيراً: ما هي التجزئة؟

"التجزئة هي محصلة وضع التأخر التاريخي للأمة العربية والأوضاع الإمبريالية التي نشأت عنه". ومن هنا فإن الصراع ضد التجزئة هو، في الوقت نفسه، أشرس صراع مع التأخر التاريخي العربي ومع إمبريالية تبذل وسعها لمنع وحدة الأمة العربية. وهنا مصاعب النضال الوحدوي وعظمته.

هذه العظمة، تجعلنا، ما دمنا ندافع بوحدويتنا عن وجودنا، متمسكين بالمشروع الوحدوي حتى النهاية. وهذه المصاعب تدعونا إلى مزيد من الصحو في مواقفنا السياسية وإلى مزيد من النفاذ في رؤيتنا النظرية. لذا، فعندما نقول إن التجزئة هي محصلة التأخر العربي والأوضاع الإمبريالية، فإننا لا نرمي بالطبع إلى إغفال عواملها وجذورها الأخرى. لقد جزأت فرنسا سورية ولبنان، ولم تعد الوحدة بينهما بعدما خرجت. وخرجت فرنسا من أقطار المغرب العربي الثلاثة، ولم تتوحد بعد خروجها.

لا شك في أن شراشر الإمبريالية تلعب دوراً في الدفاع عن التجزئة، لا شك في أن دور الإمبريالية الأكثر خطورة هو أنها تضع ثقلها مع عوامل التجزئة، إلا أن هذا الدور ما كان ممكناً أن يلعب لولا "عوامل موضوعية" قائمة في الواقع العربي، تسهل لها أن تلعب هذا الدور.

إن التجزئة ليست فقط وضعاً طبيعياً ناجماً عن تخلف المجتمع العربي، ليست فقط وضعاً مصطنعاً فرضه الاستعمار في شكل حدود ودول وأعلام وأناشيد، ليست فقط حدوداً سياسية نجمت عن تعدد الدول الاستعمارية التي حكمت الوطن العربي. وبكلمة، إن التجزئة أبعد وأكبر من الفعل الاستعماري، لذا من الخطأ أن نستجّر من القول إن الاستعمار ضد الوحدة، إنه هو الذي حال أو يحول دونها. إن مصاعبها وعقباتها أعمق وأكبر من المعارضة الاستعمارية.

لذا، فإن نقيض التجزئة، الوحدة، ليست فقط اتفاقاً بين دولتين أو عدة دول. إنها أكثر من ذلك وأبعد من ذلك: إنها وعي سياسي وعملية أو سيرورة تاريخية كاملة، سياسية، أيديولوجية، اقتصادية، اجتماعية. نعم، إن الإطار السياسي الواحد الموحد يشكل المرحلة العليا، الأكثر نضجاً، الأكمل تعبيراً عن المطلب القومي، لكن في الطريق إلى هذا الهدف تتنوع أشكال النضال الوحدوي وتتدرج، بدءاً من الدعوة الأيديولوجية، إلى الدعاية التحريضية، وصولاً إلى الخطوات التنفيذية في شتى أشكالها التطورية أو الثورية، السلمية أو العنفية، الدستورية أو التآمرية، النخبوية أو الشعبية.

ومن هنا فإن غياب مشروع وحدوي سياسي مشخص وغلبة ريح الإقليمية على ريح الوحدة لا يعني أن النضال الوحدوي يجب أن يوضع على الرف، بل، على العكس، ينبغي إيجاد الأشكال الملائمة للنضال الوحدوي تبعاً لتغيرات الواقع العياني وموازين القوى. في هذه الأشكال ليس من الضروري أن يكون شعار الوحدة السياسية في مقدمة الشعارات في كل زمان ومكان، في سورية كما في لبنان، في ليبيا كما في الكويت، في الجزائر كما في العراق، في عام 1958 كما في عام 1967، في عام 1968 كما في عام 1974. ما نعنيه هو أن نضع الوحدة في محور عملنا الاستراتيجي في المرحلة التاريخية الكبرى، مرحلة القضاء على النفوذ الإمبريالي و"إسرائيل" والرجعية، ومع ذلك وبموازاته وقبله أحياناً تحديث الحياة العربية وعقلنتها وتوحيدها.

هذه الرؤية الجدلية، الواقعية-الثورية، تتميز في آن عن:

-الرؤية القومية الخالصة التي تتشنج للوحدة مأخوذة بشكل معزول وتعتبر كل ما عداها مؤامرة لحجبها وطمسها ووضعها على الرف.

-الرؤية القومية التقليدية التي خانت قضية الوحدة تحت شعار منظور "اشتراكي وشعبي وبروليتاري" (كاريكاتوري) للوحدة، فأرجأتها إلى أجل غير مسمى، لأن لا صلة لها موضوعياً لا بالاشتراكية ولا بالشعب ولا بالبروليتاريا.

-رؤية الماركساويين الذين يذكرون الوحدة كشعار بين عشرين شعار (فيضعون، مثلاً، شعار الوحدة قبل أو بعد شعار تخفيض سعر السكر) وقد يرفعون في بعض الأحيان والأقطار شعارات مناقضة.

تلك هي، في رأينا، الأسباب التي تجعل الحديث عن الوحدة العربية، في مناخ الاستنقاع الإقليمي هذا، حديثاً مناسباً وليس مفارقة.

ففي هذا المناخ، حيث يغيب المشروع الوحدوي السياسي، وكعملية نقض طويلة، دؤوبة، صبورة، لهذا المناخ، ينبغي للعمل الأيديولوجي الوحدوي أن يستمر، وذلك لأن المشروع الوحدوي السياسي يتحول من القوة إلى الفعل بقدر نمو الوعي الوحدوي. والدعوة الوحدوية، المستندة إلى رؤية نظرية صافية ومعرفة صحيحة للواقع العربي، هي التي تهيئ الجو لعدم شرعية التجزئة ولا عقلانيتها، وبالتالي تجعل الوحدة، مهما بدت بعيدة، راهنة. هذه الرؤية والمعرفة لن تكتفي فقط بدحض وتفنيد الأيديولوجيات الإقليمية في شتى تجلياتها "التقدمية!" أو الرجعية، بل ستعمل، أول ما تعمل، على دحض وتفنيد الأيديولوجيا القومية العربية التقليدية المثالية، وتنزع ما علق بها من مسبقات ومطلقات كانت في أساس الإخفاقات الوحدوية.

الذين خانوا ويخونون قضية الوحدة العربية أصناف متنافرة: فبالإضافة إلى من خانها صدوعاً للإمبريالية أو لمصالح إقليمية وخاصة، وبالإضافة إلى من تنكر لها عندما ركب الكرسي، هناك من خانها ويخونها لأن أيديولوجيا ركبته وعلمته القول إن الوحدة العربية نافلة قومية برجوازية، أو برجوازية صغيرة. فما نصيب هذا الكلام من الحقيقة؟

من الواضح أن الطابع القومي الخالص للنزوع الوحدوي العربي، أخذ يشحب منذ فترة غير قصيرة، وبخاصة منذ أن أمسك عبد الناصر بزمام الحركة القومية وحوّل، ذاتياً وموضوعياً، حدها ضد الاستعمار وجعل منها سلاحاً للتحرر العربي من النفوذ الأجنبي وسوراً للحفاظ على الوجود العربي.

هذه الحقيقة قد برزت بوضوح أشد خلال هذا العقد الأخير بوجه خاص. في الشرق، نستشعر الحاجة إلى الوحدة العربية بسبب من التهديد "الإسرائيلي" أساساً (فضلاً عن عوامل أساسية أخرى بالطبع). في الخليج يستشعرون الحاجة نفسها بسبب الزحف الإيراني واحتمالات تفاقمه شبه الأكيدة. في المغرب العربي، أعتقد أنهم بدأوا يستشعرون حاجة إلى هذه الدرجة أو تلك من الوضوح إلى وحدة، مغربية أساساً، تعطيهم وزناً ما إزاء الثقل الأوروبي القريب والمبهض.

إن التاريخ ليس فقط تاريخ صراعات طبقية، بل هو أيضاً تاريخ صراعات بين الأمم، وإذا كان التقدمي يكره هذه الصراعات ويعتبرها هدراً لقوى الشعوب وإنزافاً لها وعرقلة لتقدمها، إلا أن هذا لا يعني ألا يأخذ في الاعتبار هذه الواقعة، وأن يعمل في الوقت نفسه لإنضاج ظروف ووعي كفيلة بإيجاد علاقات عادلة ومتوازنة بين الشعوب. إن الأمة العربية التي تعيش حالة تأخر وتشرذم طويلة، تواجه، بعد أن انحسر الظل المباشر للاستعمار الأوروبي عنها، بما يشبه الزحف من جبهات عديدة، من قلبها ومن أطرافها، والمشروع الاستعماري لا يزال قائماً، مهما تغيرت صوره وألوانه.

إن الغرب الإمبريالي، بوجه عام، يواجه الوحدة العربية بعداء تمتد جذوره إلى بعيد، كما تمليه مصالحه الراهنة في آن.

في المنطقة التي يطلق عليها اسم "الشرق الأوسط"، وتدخل فيها شبه الجزيرة العربية، واضح أن الاستراتيجية الإمبريالية الأمريكية بخاصة لا تلعب فقط بالتناقضات الطبقية داخل الأمة العربية أو بالخلافات القطرية، بل تلعب أيضاً بالتناقضات بين الشعوب. فبموجب هذه الاستراتيجية تشكل ثلاث دول (ولا أقول حكومات فقط، نظراً للثبات النسبي الطويل في سياسات هذه الدول)، وبأهمية متفاوتة وبتنسيق متفاوت في وثوقه وتلقائيته، بمثابة قوى صنعية: "إسرائيل"، إيران، الحبشة. ومع أن تركيا كانت تقوم بدور ما في هذا الصدد، إلا أن دورها يضعف أكثر فأكثر، لأسباب متعددة. أما الأمة العربية في استراتيجية الإمبريالية الأمريكية، فتشكل موضوع الحصار بوصفها البقرة الحلوب (تحلب البترول ومواد أولية أخرى عديدة) والقوة العجفاء التي تناكف الاستعمار تارة وتأتي له بالمخاطر والتهديدات، من جراء شبه التحالف العربي-السوفياتي، تارة أخرى. وبالتالي فإن الاستراتيجية الأمريكية تعامل الأمة العربية كقوة مفككة ثانوية من جهة، وكقوة معادية حيناً ومزعجة حيناً آخر من جهة ثانية.

ومن الملاحظ أن دولتين ("إسرائيل"، إيران) من تلك الدول الثلاث أكثر تقدماً من الدول العربية عموماً، وأنها بالتالي تتوفر على بنى اقتصادية وسياسية وعسكرية قادرة على تهديد الأمة العربية، بل وضربها عند اللزوم.

هذه الحقيقة الواقعة، المطرقة الأمريكية من فوق والسندان "الإسرائيلي"-الإيراني من تحت، حيث التشرذم العربي المقترن بالتأخر، لا تخرج بالشعب العربي من مسرح التاريخ كقوة فاعلة فحسب، بل تهدد بوضعه في سيرورة تراجعية تقرض وجوده رويداً رويداً.

لا شك في أن هذه الحال تجد أساساً لها في التأخر العربي، إنما حالة التشرذم والتفتت هذه تعطي مزيداً من القوة للتأخر العربي، وذلك لأن ثقل التهديد الخارجي يجعل مسألة الحفاظ على الوجود أو البقاء المسألة الأولى والأخيرة. وفي هذا السياق، تغدو مسألة الوحدة العربية بمثابة حجر الزاوية في تحررها وخلاصها من هذا الحصار المحلي المقاد والمدعوم دولياً من قبل الإمبريالية عموماً، والإمبريالية الأمريكية خصوصاً. قد يرى البعض في هذه النظرة ملمحاً رؤيوياً متشائماً، لكنه عندما يضع هذه الحقائق في سياق تاريخي ويرى إليها من منظور طويل المدى سيدرك ولا شك أن هذه معاينة وليس مزاجاً متشائماً.

إذا كانت الوحدة العربية شرطاً أولياً للبقاء العربي وللتحرر العربي، إلا أنها أيضاً وبالنسبة نفسها شرط أولي للتقدم العربي. وما أعنيه بالشرط الأولي هو الشرط اللازم فحسب، لا الشرط الكافي. وذلك لأننا قد (وأقول "قد") نتوحد من دون أن نتقدم، إلا أننا لكي نتقدم حقاً، أي أن ندخل العصر، ينبغي أن نتوحد. فالوحدة تفتح احتمالات أرحب للتقدم، احتمالات تثقلها وتزحمها التجزئة، لكن الوحدة لا تصنع بحد ذاتها التقدم.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

الصفحة الثقافية 1:

فيلم "لا أرض أخرى": الاختراق المختلف

طالب جميل

في الوقت الذي يقدم فيه أجمل شباب الأمة أرواحهم فداءً لأرض فلسطين، ولا صوت يعلو فوق صوت المقاومة، وأثناء البث الحي والمباشر للوقائع التي تحدث في غزة وجنوب لبنان ومشاهدة العالم لنماذج من المؤمنين بحقهم في الدفاع عن أرضنا العربية يقدمون أنفسهم قرباناً في سبيل الحرية والكرامة، وفي اللحظات التي كان فيها القائد المشتبك يحيى السنوار وثلة من رفاقه يقاتلون أعداءنا حتى آخر رمق، وكانت عشرات الأطنان من المتفجرات ترمى على مكان وجود سماحة القائد النموذج حسن نصر الله ورفاقه ليتوجوا رحلتهم الطويلة في حب القدس ومقارعة الأعداء بالشهادة، كان هناك شباب فلسطينيون يطلق عليهم لقب "ناشطون" يتشاركون مع بضعة صهاينة يحملون جنسية كيانهم اللقيط ويطلق عليهم "داعمون للقضية الفلسطينية" في صناعة فيلم وثائقي يدعى "لا أرض أخرى –No Other Land" ليقدموه في المحافل السينمائية الدولية للبحث عن الشهرة والجوائز والولوج إلى شاشات الإعلام العالمي المتصهين والداعم لكل نشاط يروج للتخاذل والتطبيع وتمييع فكرة الصراع الوجودي بين العرب والصهاينة.

هذا الفيلم الذي قام بصناعته وإخراجه الرباعي (باسل عذرا وحمدان بلال) من فلسطين مع (يوفال إبراهيم وراحيل تسور) من الكيان الصهيوني، والذي صدر في العام 2024، ويقع في (95) دقيقة وتم إنتاجه بدعم نرويجي، يتناول بشكل رئيسي الاعتداءات التي يتعرض لها أهالي القرى في الضفة الغربية، وقد عرض في أغلب المهرجانات السينمائية العالمية التي أقيمت عام 2024.

وعلى الرغم من أن الفيلم يتناول بشكل توثيقي ممارسات قوات الاحتلال الصهيوني ضد سكان القرى الفلسطينية من إطلاق النار عليهم وهدم بيوتهم وتهجيرهم ومعاناتهم المستمرة مع سياسات التوسع الاستعماري وعدم وجود قانون يضمن للفلسطينيين حياة آمنة ويحميهم من بطش سلطات الكيان، إلا أن العمل غرق في شوائب أخرى مرتبطة بالدرجة الأولى بالوقوع في فخ التطبيع. فعدا عن اللبس الذي يعتري الأفلام "الفلسطينية" التي تمول من جهات أجنبية فلا يحق لأي يهودي يقيم في كيان الاحتلال ويحمل جنسيتها ويخدم في جيشها ويقطن في أرض ليست ملكه أن يتحدث عن معاناة الفلسطينيين ويطالب بتحسين ظروفهم المعيشية وتوفير الأمن لهم، لأنه جزء من هذا المشروع الاستعماري وما يقوم به عبارة عن تشويه وتمييع لحقيقة الحدث التاريخي واعتراف بقبول الأمر الواقع مع المطالبة بتحسينه، وليس أكثر من وسيلة للضغط على السجّان لتوفير ظروف أفضل للسجين ليعيش برخاء وأمان في سجنه.

ولا شك أن مثل هذه الأصوات "الإسرائيلية – الصهيونية" تلقى قبولاً ورواجاً واسعاً في المحافل الدولية، وخصوصاً لدى الغرب الذي يتلقى المسألة من منظور حيادي مبني على تعزيز فكرة السلام والتعايش بين الشعبين الصهيوني والفلسطيني متجاهلاً –وبشكل متعمد- حقيقة الظلم الذي تعرض له الشعب الفلسطيني ومساوياً بين اللصوص وأصحاب الحق خاصة أن هذا الغرب متيم بفكرة المظلومية التي تعرض لها الشعب اليهودي المبنية على وهم "الهولوكوست".

ولأن مثل هذه التجارب السينمائية المشوهة تسهل عملية الترشيح للمهرجانات السينمائية العالمية، سعى المخرجان الفلسطينيان للفيلم إلى تكرار تجارب أخرى لبعض المخرجين مثل "هاني أبو أسعد"، مخرج فيلم "الجنة الآن"، والذي رشح لأوسكار أفضل فيلم أجنبي في العام 2005، وأيضاً "هاني أبو أسعد" الذي حاز فيلمه "يد إلهية" على جائزة في مهرجان كان السينمائي، فقبلا أن ينتجا فيلماً بالتشارك مع كادر إخراجي صهيوني، وتحقق لهم ما أراداه فالفيلم حاز على عدة جوائز عالمية أبرزها جائزة الأوسكار لأفضل فيلم وثائقي في بداية عام 2025، وجائزة أبرز فيلم وثائقي في مهرجان برلين في العام 2024، إضافةً إلى جوائز من مهرجانات أخرى مما يشير إلى بروز نوع جديد من الأفلام السينمائية "الفلسطينية" اسمها "أفلام الاستجداء" تقوم فكرتها على تقديم مضمون سياسي مشوه عن القضية الفلسطينية، إما بالتشارك مع جهات أجنبية أو صهيونية، أو من خلال تقديم أفكار عن السلام والتعايش وقبول تقاسم أرضنا مع الصهاينة والحث على المقاومة "السلمية" أمام الصواريخ والدبابات وتجريم وتسخيف فكرة المقاومة المسلحة ضد الكيان، ويكون هدفها حصد الجوائز والشهرة والوقوف على السجادة الحمراء أمام الكاميرات في المهرجانات السينمائية الغربية.

إن هذا النوع من الأفلام التي يبدو ظاهرها مناصراً لقضية فلسطين وباطنها ملغوماً بالنوايا التطبيعية يجعلنا أمام ظاهرة جديدة تحث على التطبيع لكن بطريقة إبداعية جديدة، حتى أن وسائل الإعلام العربية أصبحت تقع في هذا الفخ وتروج وتهلل لمثل تلك الأعمال على اعتبار أنها مناصرة للقضية ولحق الشعب الفلسطيني في حالة غرق واضحة في الرتوش والعناوين وعدم إدراك واستيعاب حقيقة المضمون، وهو ما يزيد من حالة البؤس والضياع والتشتت عند المشاهد العربي المستسلم لهذا الفضاء الإعلامي المسموم والموبوء.

لا يمكن أن ننكر أن هناك أزمة كبيرة فيما يسمى بالأفلام الفلسطينية التي تنتج في الأراضي المحتلة عام 1948 أو في أراضي الضفة الغربية أو حتى في أي مكان آخر والتي يكون الهدف منها تقديم عمل يتناول القضية الفلسطينية بشكل مباشر أو غير مباشر، فعدا عن كارثة التمويل الأجنبي وهي السمة المشتركة في الغالبية العظمى من هذه الأفلام، فهناك تشوهات خطيرة تحكم الفكرة التي تقدم فيها هذه الأعمال، والأمر بالتأكيد ليس مصادفةً أو حسن النية، فالجهات الممولة تشترط بأن لا يقدم الفيلم قضية فلسطين بشكلها الحقيقي وأن لا يحمل أي توجهات فيها دعم لفكرة المقاومة، ويتم أحياناً إشراك صهاينة في صناعة العمل حتى يسهل تسويقه وترويجه وعرضه في المهرجانات الكبيرة وعلى المنصات العالمية المشهورة ومنحه الشهادات والجوائز، فالأمر لا يتعلق بمضمون وفكرة العمل فقط بل بالجهات التي تساهم في صناعته أيضاً.

بعد كل هذه العقود من المعاناة، وبعد كل تلك التضحيات التي قدمت من أجل فلسطين، وبعد كل هذا الإجرام الذي يمارسه العدو الصهيوني وحلفاؤه من الغرب يومياً، لا يمكن لإنسان عربي عاقل أن يتعامل مع مشهد وقوف مخرج فلسطيني وهو يحيّ الجمهور ويضع يده بيد مخرج صهيوني على أنه مشهد عادي أو طبيعي تماماً، فالتعريف الاصطلاحي للتطبيع بأنه جعل ما هو غير طبيعي طبيعياً، فممارسة هذا السلوك غير الطبيعي يجعل هذا المخرج أو الممثل ممارساً للتطبيع مع عدوه ومروّجاً له، بغض النظر عن الأهداف والنوايا، وممارسة التطبيع والدعوة له ليست أقل بذاءة من الدعوة للمثلية الجنسية القائمة على فكرة القيام بشيء غير طبيعي ومخالف للفطرة البشرية، حيث أن التطبيع مخالفة لفطرتنا العربية والإسلامية التي تغرز فينا القوة وعزة النفس وتحثنا على قتال العدو والجهاد ضد المحتل والعيش بكرامة وعدم التهاون والتسليم لمن يعتدي على حقوقنا ويستبيح أرضنا.

لا يمكن وصف الفيلم الوثائقي "لا أرض أخرى –No Other Land" ذي اللمسة الصهيونية إلا بأنه اختراق مختلف للفكر وتلويث للوعي وتسميم للثوابت ولا يمكن تصنيفه إلا كخيبة جديدة تضاف إلى سلسلة الخيبات التي تتعرض لها أمتنا من بعض شبابها الذين نذروا أنفسهم لخيانة عروبتهم وطعنها في خاصرتها.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

الصفحة الثقافية 2:

الإنسان، بين غوركي وكونديرا

مريم نصرالله

ماذا يعني أن تكون إنساناً؟

مر وقت طويل، فلنقل منذ نشوء الأدب وسيلةً للتعبير، وما زال السؤال هو السؤال، ماذا يعني أن تكون إنساناً؟ قد تكون الإجابة، ظاهرياً، بسيطة للغاية، أن تكون إنساناً يعني أن تكون حراً، من كل شيء أحياناً، بأفكارك، بتصرفاتك، وبأحلامك، وهذه وجهة نظر. أن تكون إنساناً، قد تعني فيما تعنيه أن تكون مرتبطاً بالجمع، بآلامهم، أفراحهم ومآسيهم، وهنا يستمد الفرد إنسانيته من ارتباطه بالمجموع، عائلةً، مجتمعاً، أمةً، أو بشرية. وهذه وجهة نظر أيضاً، لكن في العمق، العمق جداً، ماذا يعني أن تكون إنساناً؟

لما كان السؤال الجوهري أعلاه محور البحث، تحتم على الفلاسفة والأدباء والمفكرين عبر التاريخ التصدي لهذه المهمة. وفي محاولة للإجابة، تعددت التيارات والفلسفات، وبقيت الحقيقة طيفاً يصعب الإمساك به في حمأة الصراع التناحري التاريخي بين اتجاهات شتى. ماذا يعني أن تكون إنساناً، تساؤل يضعنا على أعتاب أشهر اتجاهين في القرنين الأخيرين، حيث يجادلنا كونديرا ويرشدنا غوركي، لتبقى إجابتنا، هي المحدد الأساسي لقيمة وجودنا في الحياة.

في عالم غوركي و"الأم"

يقدم غوركي في روايته "الأم" تصويراً للحياة اليومية لعائلة بيلاجيا، حيث تعاني الأسرة من قسوة الأب المدمن على الشراب، إذ بعد وفاته، تبدأ بيلاجيا في ملاحظة تغييرات في سلوك ابنها بافل، الذي يبدأ في زيارة المدينة خلال عطلاته، حيث يكتسب المعرفة من الكتب التي يقرأها. يتغير سلوكه، ويصبح ألطف، يستضيف أصدقائه في المنزل، ومن بينهم أندريه الأوكراني

وساشا وناتاشا، الفتاتان اللتان تركتا عائلتيهما الثرية للانضمام إلى النضال الثوري، لكن لحظة الحقيقة تكمن عندما تكتشف بيلاجيا أن ابنها وأصدقاءه يتحدثون عن قضايا العمال، وأنهم ينظمون اجتماعات في منزلهم لمناقشة التحديات التي يواجهونها، إذ يكتسبون وعياً ثورياً، حيث ينكبون على قراءة الكتب والنقاش حول حقوق العمال.

تبدأ الإضرابات في المصنع، وتتوزع المنشورات التي تدعو العمال إلى النضال من أجل حقوقهم، وهنا تشعر بيلاجيا بالفخر تجاه ابنها، لكنها تخشى على مصيره، تتعرض العائلة لمداهمات من الشرطة، ويتم اعتقال أندريه، مما يزيد من التوتر، ثم تقرر بيلاجيا أن تشارك في النضال، فتشرع في تهريب المنشورات إلى العمال في المصنع، وهنا تتحول من ربة منزل إلى ناشطة ثورية، حيث تنتقل بين المدن لتوزيع الكتب والصحف، وتصل الأحداث إلى ذروتها عندما يُحاكم بافل ورفاقه، تشهد بيلاجيا محاكمة ابنها، حيث يتحدث بافل بشجاعة عن مبادئ الاشتراكية وحقوق العمال، مؤكداً إيمانه بالتغيير، ويُحكم عليهم بالنفي إلى سيبيريا، مما يمثل نقطة تحول في الرواية.

تنتهي الرواية بتصميم بيلاجيا على الاستمرار في النضال من أجل القضية، حتى بعد نفي ابنها، تحمل رسالة بافل وتبدأ في توزيعها، ولكنها تواجه الشرطة، في مشهد تقف فيه الثورة مع القمع وجهاً لوجه. ويمكن القول إن "الأم" ليست مجرد رواية عن حياة عائلة روسية، بل هي تجسيد لرؤية غوركي حول الإنسانية والنضال من أجل العدالة. من خلال تصويره للظروف الاجتماعية القاسية، يعكس غوركي التحديات التي تواجهها الطبقة العاملة، ويبرز أهمية الوحدة والتضحية في سبيل تحقيق التغيير. إن الأدب، في هذا السياق، يصبح وسيلة لنشر الوعي وتعزيز القيم الإنسانية، لتكون الرواية أول مسمار يدق في نعش البرجوازية الحاكمة، مجيبة عن سؤال هو الأهم، ماذا يعني أن تكون إنساناً؟

لم يكن غوركي حين كتب روايته "الأم" يشيح ببصره عن هذا السؤال، ففي الرواية التي تدور أحداثها في روسيا القيصرية في أوائل القرن العشرين، تتجلى الواقعية الاشتراكية كأداة فعالة للتأثير في المجتمع، الأدب هنا ليس مجرد وسيلة للتسلية، بل هو أداة للتغيير الاجتماعي، وانطلاقاً من فهم عميق لبنية المجتمع وصراعاته المودية للتغيير، تضع الواقعية الاشتراكية الواقع في خانة الحقيقة الموضوعية الأساس، حيث الإرادة الجماهيرية التي تنشد الحق والخير وتبني المجتمع الجديد هي المنتصرة حتماً.

من هو الإنسان في نظرها؟ هو المؤمن بوحدة قضايا الشعوب، هو الذي يغلب المصلحة العامة الإنسانية على فرديته ومصلحته الشخصية، النضال في سبيل التحرر مبدأ لا حياد فيه، وإذ يرفض الاستعمار والاستغلال والتمييز، يشكل النموذج البطولي الواعي والمضحي والملتحم مع الجماهير لبناء مستقبل أفضل، مستقبل تقدمي، يكون الكاتب فيه "مهندس النفس البشرية"، معزز النضال لا متفرجاً سلبياً مجرداً من الرؤية أو الرسالة، فالرسالة هنا هي الإنسانية، هي النضال والثورة بأسمى تجلياتها.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

كونديرا "كائناً لا تحتمل خفته"

في آب 1968، كانت تشيكوسلوفاكيا تتحضر للخروج من عباءة الاتحاد السوفييتي والاتجاه أكثر فأكثر نحو الغرب بعد ما سمي "ربيع براغ" حين حشد حلف وارسو القوات لتنفيذ إحدى أكبر العمليات العسكرية بعد الحرب العالمية الثانية، إذ اجتاح 250 ألف جندي البلاد حيث دارت رحى الحرب التي انتهت بإيقاف "إصلاحات" ألكسندر دوبتشيك وتعزيز سلطة الجناح السلطوي للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، في تلك الأيام، بدأت علاقات ومصائر شخصيات روايتنا تتبلور فكانت "كائن لا تحتمل خفته"، أو في ترجمة أخرى "خفة الوجود التي لا تحتمل" لميلان كونديرا.

بين توماس، تيريزا، فرانز، وسابينا، ينسج كونديرا شبكة العلاقات المحكومة بالرغبة والسيطرة، الحب والكثير من الخيانة. يختار توماس أن يعيش بخفة، لكن ثقل علاقته بتيريزا يجذبه نحو الأرض، مما يثير تساؤلات عميقة حول ما إذا كان يمكنه حقاً الهروب من هذا الثقل. تيريزا، التي تُصور كـ"طفل صغير وضع في سلة مطلية بالقطران ورميت في مجرى النهر"، تجسد هشاشة النفس البشرية، وقدرتها على التعلق بالأمان في علاقات غير متوازنة، فهل يتركها مع المياه الهادرة؟

يرزح توماس، المريض بالشفقة، تحت وطأة علاقة زوجية تفتقر إلى التفاهم والحب، والتي نتج عنها طفل وحيد، ويسعى للتحرر من هذا الثقل، مبتعداً عن قيود تلك العلاقة لينغمس في علاقات عابرة لا حصر لها، لكن لقاءه الغريب بتيريزا، المبني على صدف ستٍّ غير متوقعة، يجعله عالقاً بين رغبته في الحرية وخوفه من فقدانها. في هذا السياق، يستعرض كونديرا كيف يمكن أن يكون هذا الارتباط مصدر ضعف، حيث تمثل تيريزا الجانب العاطفي الذي يجذبه للعودة إليها، بينما يشعر بأنه محاصر في مسار العلاقة، تحيط الأثقال بتوماس الذي يجد نفسه أمام خيارين دوماً، هل يتمسك برأي كتبه ذات يوم في صحيفة، أم يتراجع عما كتبه؟ هل يترك البلاد الواقعة تحت الحرب، أم يبقى فيها؟ هل يكافح لأجل رؤية ابنه، أم يتخلى عن هذه الأبوة؟ ترجح كفة الخفة دوماً، فيميل إلى التخلص من عبء كل موقف ورمي الثقل عن كاهله في كل مرة.

تلعب سابينا، التي تمثل رمز الخيانة والتحدي، دوراً محورياً في الرواية، فهي ليست فقط خليلة توماس، بل هي أيضاً نقطة التقاء بين الرغبات المتضاربة، هي التي تلجأ إليها تيريزا بحثاً عن الهوية والأمان في مشهد يجسد الخيانة التي يرفض الكاتب الاعتراف بها، ويلجأ إليها فرانز سعياً لتحقيق الكمال في الحب، حيث يُظهر كونديرا كيف أن فكرة المثالية يمكن أن تكون فخاً، فرانز، الذي يعتقد أنه سيجد السعادة مع سابينا، يكتشف في النهاية أن تحررها من العلاقة هو ما يقود إلى وحدته، وسابينا، من ناحية أخرى، تختار الهروب من القيود التي تفرضها عليها العلاقات، فالحرية، تتطلب تضحيات مؤلمة.

تتداخل مصائر الشخصيات في الرواية بشكل معقد، مما يعكس طبيعة العلاقات الإنسانية التي تسير على حافة الرغبة والالتزام، وتتسم الرواية بتأملات فلسفية وجودية حول معنى الحياة وحرية الفرد ومفهوم الخيانة، كما يتناول كونديرا مفهومي "الخفة" و"الثقل" كرمزين لتجارب الحياة، تمثل الخفة التحرر من القيود، المبادئ، والأفكار العظمى، بينما يمثل الثقل الأعباء التي نتحملها جراء التزامنا بهذه المبادئ والأفكار.

تجسد هذه الراوية بأفكارها وشخصياتها أدب ما بعد الحداثة الذي يشك في السرديات الكبرى، والسرديات الكبرى هي وصف شامل أو تفسير شامل للأحداث والظروف يوفر نمطاً أو بنية لمعتقدات الناس ويعطي معنى لتجاربهم، في عالم ما بعد الحداثة، اللاعقلانية وعدم الوضوح هما الأساس، النزاهة والمثالية كلمتان مرفوضتان، والسخافة، التفاهة، أو العبثية هي الحقيقة الوحيدة في مواجهة المبادئ الإنسانية، وهنا تعتبر المفاهيم والأفكار والأيديولوجيا بنيات ذاتية وتعسفية، وبالتالي فإن كل فكرة مفاهيمية أو عقائدية، هي أيضا قمعية، ليس هنالك من حقيقة، لا شيء صحيح أو موثوق، وفي التجربة الفردية "التجربة المعاشة" تكمن الحقيقة، والتي لا يمكن أن تكون إلا حقيقة شخصية.

وإذ ينفصل كونديرا في أدبه عن السرد التقليدي، تستعرض الرواية شخصيات تعاني من صراعات داخلية تتعلق بهويتها، حيث الهوية ليست ثابتة، بل متغيرة ومعقدة في حالة من اللايقين والشك، وتتمرد على الرواية الكلاسيكية فترفض النهايات المرضية أو الحلول الواضحة.

أما "الرسالة" فهي المفتاح هنا، هل نحمل رسالة أم أننا "أحرار" نسبح بخفة في الهواء؟ يميل كونديرا إلى أننا لا نملك أي رسالة "لا رسالة لي ولا أحد يملك رسالة، إنها لتعزية لا تقدر بأن نشعر بأننا أحرار ولا رسالة لدينا"، لكن يبقى السؤال: هل الثقل فظيع حقاً والخفة جميلة؟ هل نحن أحرار بخفتنا أم مجردون من المعنى في عالم المفاهيم الكبرى؟ "إن أكثر الأحمال ثقلاً يسحقنا، يلوينا تحت وطأته ويشدنا نحو الأرض"، يجيب كونديرا، ويبقى للأدب الإنساني رأي آخر.

الإنسانية بين ضفتين

يبدو أن الإنسانية، كما كل شيء آخر، لا تتجزأ، أن تكون إنساناً يعني أن تجد لنفسك قيمة في حياتك وحياة الآخرين من حولك، أن تترك أثراً إيجابياً، أن تنبري للدفاع عن رسالة الحق والخير التي خلقت من أجلها في عالم مليء بالظلم، ألا يعني كل ذلك أن تكون صاحب مبدأ لا يتزعزع؟

على الضفة الأولى... كان ذلك في خمسينيات القرن الماضي، حين التحق ميلان كونديرا بالحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، عندما كانت بلاده منضوية تحت راية الاتحاد السوفييتي، إذ بعد عامين، فصل من الحزب إثر ملاحظة "ميول فردية" عليه، عاد بعدها بست سنوات إلى الحزب ثم فقد عمله عام 1968، وفصل للمرة الثانية من الحزب الشيوعي عام 1970 فقرر الهجرة إلى فرنسا بعد منع كتبه من التداول لمدة خمس سنوات.

بأسلوبه الساخر، يتضح فور القراءة الأولى لمن نقرأ، خيانات بالجملة، علاقات متعددة، سيطرة، عنف، و"تحرر جنسي"، مواضيع تتمحور حولها مختلف رواياته، لكن ما بين السطور، تتضح الفردية إياها أكثر فأكثر لتعبر عن كاتب وجودي ، بل أكثر، تعبر عن كاتب ما بعد حداثي، لا معنى لوجود الإنسان عنده، ورغم زخم تكريماته التي حصل عليها خلال مسيرة حياته، يبقى قبوله "جائزة القدس" التي منحه إياها الكيان الصهيوني عام 1985 هو الفعل الأكثر اتساقاً مع فرديته المطلقة، فهل كان حقاً إنساناً من يقبل جائزة من محتل؟ هل كان يسارياً حقاً من يقبل تكريماً من استعمار؟ لم يكن إلا كائناً لا تحتمل خفته، فما الذي بقي منه؟

كان غوركي، على الضفة الأخرى، اشتراكياً شرساً، انضم إلى الحزب البلشفي عام 1905 ونُفي من روسيا عام 1906 بسبب نشاطه السياسي، حيث عاش في المنفى عدة سنوات، وكان من أشد المؤيدين للثورة البلشفية التي اندلعت في روسيا عام 1917، والتي رأى فيها فرصةً لتحقيق العدالة الاجتماعية، والقضاء على الظلم والقهر اللذين كان الشعب الروسي يعانيهما تحت الحكم القيصري، وفيها استثمر ملكته الأدبية للترويج لأفكار الثورة ودعمها، فكان نتاجه الأدبي معبراً عن أفكاره الثورية ومحفزاً على التغيير، لم يقتصر على الكتابة والإبداع، بل امتد دوره ليشمل الحياة الثقافية والسياسية في روسيا؛ إذ شجع على نشر الوعي الاجتماعي، وناصر قضايا المقهورين، ليكون مؤثراً بارزاً له بصمته في تجارب الأجيال القادمة من الكتاب الروس والعالميين على حد سواء.

خاتمة لا بد منها

أمام اتجاهين هما الأبرز في القرنين الأخيرين، تُظهر الواقعية الاشتراكية رؤية متماسكة تدعو إلى العمل الجماعي والتضامن، بينما يُعبر كونديرا عن حالة من عدم اليقين والبحث عن الذات، لتكون الواقعية الاشتراكية، من خلال تركيزها على القضايا الاجتماعية وعلى جوهر الوجود الإنساني، أكثر قدرة على تقديم إجابات شاملة حول معنى الإنسانية، حيث الأدب يتجاوز كونه مجرد تعبير عن الأفكار، ليغدو أداة للتغيير تعكس تطلعات المجتمعات وتحدياتها، وتطمح لبلوغ أسمى أهدافها في الحق والخير والعدالة.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

قصيدة العدد:

نبهتهم مثل عوالي الرماح / الشريف الرضي

نبَّهتُهُم مِثلَ عَوالي الرِماح
إِلى الوَغى قَبلَ نُمومِ الصَباح

فَوارِسٌ نالوا المُنى بِالقَنا
وَصافَحوا أَعراضَهُم بِالصِفاح

لِغارَةٍ سامِعُ أَنبائِها
يَغَصَّ فيها بِالزَلالِ القَراح

لَيسَ عَلى مُضرِمِها سُبَّةٌ
وَلا عَلى المُجلِبِ مِنها جُناح

يا نَفسُ مِن هَمٍّ إِلى هِمَّةٍ
فَلَيسَ مِن عِبءِ الأَذى مُستَراح

قَد آنَ لِلقَلبِ الَّذي كَدَّهُ
طولُ مُناجاةِ المُنى أَن يُراح

لا بُدَّ أَن أَركَبَها صَعبَةً
وَقاحَةً تَحتَ غُلامٍ وَقاح

يُجهِدُها أَو يَنثَني بِالرَدى
دونَ الَّذي قُدِّرَ أَو بِالنَجاح

الراحُ وَالراحَةُ ذُلُّ الفَتى
وَالعِزُّ في شُربِ ضَريبِ اللَقاح

في حَيثُ لا حُكمٌ لِغَيرِ القَنا
وَلا مُطاعٌ غَيرَ داعي الكِفاح

ما أَطيَبَ الأَمرَ وَلَو أَنَّهُ
عَلى رَزايا نَعَمٍ في مَراح

وَأَشعَثِ المَفرِقِ ذي هِمَّةٍ
طَوَّحَهُ الهَمُّ بَعيداً فَطاح

لَمّا رَأى الصَبرَ مُضِرّاً بِهِ
راحَ وَمَن لَم يُطِقِ الذُلَّ راح

دَفعاً بِصَدرِ السَيفِ لَمّا رَأى
أَلّا يَرُدَّ الضَيمَ دَفعاً بِراح

مَتى أَرى الأَرضَ وَقَد زُلزِلَت
بِعارِضٍ أَغبَرَ دامي النُواح

مَتى أَرى الناسَ وَقَد صُبِّحوا
أَوائِلَ اليَومِ بِطَعنٍ صُراح

قَومٌ رَضوا بِالعَجزِ وَاِستَبدَلوا
بِالسَيفِ يَدمى غَربُهُ كاسَ راح

توارَثوا المُلكَ وَلَو أَنجَبوا
لَوَرَّثوهُ عَن طِعانِ الرِماح

غَطّى رِداءُ العِزِّ عَور ... فَافتُضِحوا بِالذُلِّ أيَّ اِفتِضاح
إِنِّيَ وَالشاتِمَ عِرضي كَمَن ... رَوَّعَ آسادَ الشَرى بِالنُباح
يَطلُبُ شَأوي وَهوَ مُستَيقِنٌ ... أَنَّ عِناني في يَمينِ الجِماح
فَارِمِ بِعَينَيكَ مَلِيّاً تَرى ... وَقعَ غُباري في عُيونِ الطِلاح
وَارِقَ عَلى ظَلَعِكَ هَيهاتَ أَن ... يُزَعزِعَ الطَودُ بِمَرِّ الرِياح
لا هَمَّ قَلبي بِرُكوبِ العُلا ... يَوماً وَلا بَلَّ يَدَيَّ السَماح
إِن لَم أَنَلها بِاِشتِراطٍ كَما ... شِئتُ عَلى بيضِ الظُبى وَاِقتِراح
أَفوزُ مِنها بِاللُبابِ الَّذي ... يُغني الأَماني نَيلُهُ وَالصُراح
فَما الَّذي يُقعِدُني عَن مَدىً ... لا هُوَ بِالنَسلِ وَلا بِاللِقاح
وَخِطَّةٍ يَضحَكُ مِنها الرَدى ... عَسراءَ تَبري القَومَ بَريَ القِداح
صَبَرتُ نَفسي عِندَ أَهوالِها ... وَقُلتُ مِن هَبوَتِها لا بَراح
إِمّا فَتىً نالَ العُلى فَاِشتَفى ... أَو بَطَلٌ ذاقَ الرَدى فَاِستَراح

بغرام بالمجد وهيام بالعلياء، كتب الشريف الرضي إحدى أشهر قصائد العصر العباسي، هذه القصيدة التي تستحق أن تكون "نشيد الفتوة العربية"، إذ اخترنا منها هذه الأبيات التي يتجلى فيها مفهوم البطولة، حيث يدعو الرضي إلى قتال الأعداء بصلابة وعزيمة، يُظهر هذا النداء قوة الإرادة والإقدام التي كانت، وما زالت، جزءاً لا يتجزأ من الهوية العربية، إذ الاستبسال في المعارك ليس مجرد واجب، بل هو فخر يحمل على كاهل الشجاعة، مما يُبرز القيم النبيلة للفارس العربي، وفيها دعوة للبطولة وقتال الأعداء بجسارة ليست غريبة عن الفارس العربي الحق.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

رسوم العدد: يوم الأرض في فلسطين

رائد القطاني
Raed Yousef Qatanani 2018

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــــدد 98
01 نيسان 2025

2017
Raed Yousef Qatanani

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي